إلى الأستاذ الكبير
جميل مطر مع تحيات
وتقدير الطاهر
٢٨/٥/٢٠٠١

السلطان يستفتي شعبه
وحكايات أخرى

تأليف
دكتور الطاهر أحمد مكي

الناشر
مكتبة الآداب
٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة - ت: ٣٩٠٠٨٦٨

الطبعة الأولى
رجب ١٤٢١ هـ - سبتمبر ٢٠٠٠م

إلى خديجة مْزالي

مغربية مثقفة، كانت وراء هذا الكتاب؛ دفعاً وتشجيعًا ومعاونةً ورسومًا...

شيء كالمقدمة

هذه حفنة حكايات شعبية، التقطتها من المغرب العربى، أثناء ترددى عليه طالبًا مبتعثا إلى إسبانيا، فى الفترة ما بين ١٩٥٧ و١٩٦٤، جلها من طنجة، وقليلها من مراكش، ينشدها «القوّالون» أو «الحكّاؤون» فى المقاهى الشعبية، تعيها ذاكرتى، فى مجملها، فإذا عدت إلى فندقى دونت هيكلها فى أوراقى ثم رجعت إليها بعد سنوات من عودتى إلى القاهرة، فكسوتها لحما بعد أن كانت مجرد عظام، وها هى الآن بين يدى القارىء يجد فيها إلى جوار المتعة الأدبية فائدة اكتشاف الوجدان المغربى، صادقًا بلا زيف ولا تزويق، حين يحب أو يكره، حين يسخر أو يرضى، حين يواجه الحياة تتعاور عليه قاسية أحيانا، وراضية قليلا، فهى تعكس اهتمامات الرجل المغربى البسيط فى موقفه من الحياة ومن السلطة ومن أخيه الإنسان، وإذا كان المصرى يؤثر «النكتة» حين ينقد أو يسخر أو حتى لمجرد التعبير عما يريد، فالمغربى يستخدم الحكاية، يتخفى وراءها حين يصور حاكمه، أو سلطانه إذا شئت: أبله ساذجا، جاهلا، أضحوكة الذين حوله، يضللونه ويكذبون عليه، وينفخون فيه، وينسبون إليه الحكمة وفصل الخطاب، ليتبين فى نهاية الأمر، أنه «أبيض» المخ، خالى الوفاض من كل ما يزعمون.

تصور الحكايات الرجل المغربى قدريًا متواكلا كسلان آونة، وتاجرًا نشطا ساعيا نحو رزقه آونة أخرى، وفى الحياة أولئك وهؤلاء، والمرأة فيها نفس المرأة التى صورها نجيب محفوظ فى ثلاثيته، وجسدتها

السينما فى الروايات المقتبسة منها، وأبادرفأقرر أن ذلك كان واقعها خلال العصور الوسطى، وقبل نصف قرن خلا، حين كان العض بالنواجز على الماضى يمثل سلاحا صلبا فى مقاومة الاستعمار الفرنسى فى جنوب المغرب، والإسبانى فى شماله، ويحول فى صلابة وعناد دون تفتت شخصيته أو ذوبانها فى الآخرين، وتميّزه على الدوام عن محتليه. لكن من الحق أيضا أن الحكايات تعكس لونا من دلّ المرأة على زوجها، وقبسا من إكرامه لها، وسماع كلمتها، وهو بعض ما يجرى واقعاً، ولا تبدو المرأة فى الحكايات أما أو أختا أو بنتا، أو مجرد امرأة، وإنما ترد زوجة فحسب.

تتجلى وحدة المغرب واضحة فى هذه الحكايات، فلا فرقة ولا صدى لأى عصبية قبلية، مما حاول الاستعمار أن يجذّره، وسوّد العلماء الغربيون (إن صح أن يشرف مثلهم بهذا اللقلب) صفحات كثيرة، وأراقوا مدادا غزيرا فى إثارته، وإضفاء ثوب التاريخ والعلمية عليه، وحين رحل خلف وراءه قنابل موقوته، ممثلة فى عملائه، يتخفون وراء الثقافة، ويلبسون دعاوي التجديد، ويبثون باطلا كثيرا بين طوائف الشباب، ويثيرون فتنا تفرق الجماعة، وتوهن العزيمة، وتعوق خطى السائرين.

المنافسة الوحيدة التى يلمسها القارىء، وتبرز على استحياء، هى بين المغاربة المقيمين، والأندلسيين الوافدين، بعد أن فقدوا وطنهم، وهم -كما يقول أبو البقاء الرندى فى نونيته الخالدة- «وأنتم يا عباد الله إخوان»، ومبعثها فيما أرى أن الأندلسيين الوافدين كانوا أسبق تقدما، وأمهر حرفا، وأعلى ثقافة، وأقدر على الكسب، ولكنه تنافس

طبيعي، جرى هيّنا ليّنا، خفيّا ناعما، عبرت عنه إحدى الحكايات فى جلاء ووضوح.

من خلال الحكايات تبرز بعض الخصائص المغربية، وجانب من التقاليد والعادات، فى الطعام والشراب واللباس، والتجارة والرحلة والتدين، من صلاة وزكاة وحج، ومواجهة الشدائد والمحن، والاحتيال عليها، ولحظات الضيق والإفلات منها، ولما كانت التسلية غاية القوّال، أو الحكاء، الأولى، فإن الحكاية تعتمد على المفارقة فى التصوير، والألغاز البسيطة، والمعميات، وتوظيف الذكاء فى حلها، فيبقى ذهن السامع يقظا متابعا، لا يمل ولا يتثاءب، ولا يدير ظهره للحلقة، أو يغادرها بعد قليل.

يجلس «القوّال» فى المقهى الشعبى فى طنجة، فى حى القصبة، أو فى السوق فى مراكش، ويتحلّق الناس حوله، ويهدر (هدر فى اللهجة المغربية تحدث) بلغة ذات إيقاع متفاوت، لتجسيم المعانى عن طريق التنغيم، لأنه يهدر منفردا، وحديثه بالعربية فى جملته، ألفاظه عربية أصواتا ومعنى، قليل منها تطور فى دلالته وأخذ معنى محليا، تخالطه ألفاظ أجنبية قليلة، أسبانية وفرنسية وربما إيطالية، وإنجليزية فى طنجة، أخذت صورة مغربية، وبربرية فى مراكش وكالعادة يفهمها الناس جملة، ولا بأس بأن تسقط كلمة من هنا وكلمة من هناك، ما دامت الألفاظ التى تسقط من سمعهم أو فهمهم لا تحول دون إدراك المعنى كُلاًّ، ولا بأس أن يفهموا المعنى على النحو الذى يريدون، وأن يملئوا الفراغ من عندهم، لأنهم سوف يروونها ويوظفونها كما يحبون، وتلك خصيصة الأدب الشعبى، خلق جماعى، كان فى البدء إبداع

فرد، ومع الزمن تظل البنية الأساسية، فى خطوطها العامة واحدة، ولكنها ترتدى فى كل عصر، وعند كل شعب، وفي كل بيئة، الثوب الذى يريده لها حاكيها.

مصادر الحكايات التى معنا متنوعة، بعضها عريق ضارب فى القدم، أصوله شرقية وبعضها من تراثنا العربى المعهود، مثل ألف ليلة وليلة، وكليلة ودمنة، والأمثال، جرى عليها ما ألمحنا إليه سابقا من التغيير والتبديل، والزيادة والنقص، وبينها حكاية يعود بها المتخصصون فى علم المأثورات الشعبية إلى مصر القبطية، وبعضها عبر المغرب إلى الأندلس، وفيها أخذ طريقه إلى الأدب الإسبانى فيما بعد، الشفوى والثقافى، كما أن بعض الحكايات الإسبانية نَجد صداها فى المغربية أيضا، ولست الآن بصدد دراسة متعمقة تنتهى بالقارئ إلى معرفة من المرسِل ومن المتلقِّى، لأن الأخذ بين العدوتين، المغرب والأندلس، عريق جدا، قبل أن يوجد كلاهما فى صورته وتسميته التى نعرفها، ولعلّى أعود إلى بسط الأمر وجلائه على نحو أفضل فى مناسبة أخرى.

وبالله التوفيق

الطاهر أحمد مكى
٣ شارع مصدق - الدقى
الجيزة (١٢٣١١)
ت: ٣٦١٣٣٠٦

السُّلطان يسْتفتِي شعْبَه

ذات يوم دعا سلطان بابل المعظم نساءه وقيانه وجواريه، وأبناءه وأقاربه وخاصته، وخدمه وجنود حرسه، إلى اجتماع عام. وأمر بأن يدعى إليه أيضاً العلماء والجهال، والفلكيون والسحرة والمشعوذون والمنجمون ومفسرو الأحلام، وولاة المقاطعات وعبيد المدينة.

عندما اجتمع المجلس قال السلطان إنه دعاهم ليأخذ رأيهم باعتبارهم ممثلى كل الشعب فى شتى طوائفه وطبقاته، فى استفتاء يتكون من جزأين:

الأول: هل تكون خيلى أشد عدواً، وأصلب أجساماً، وأطول عمراً، لو علفناها لحم ضأن بدل الحشائش والحبوب؟

وعندما سمع الحاضرون السؤال نظر بعضهم إلى بعض، وتهامسوا إنهم سوف يردون على هذا السؤال بلا طبعا.

الثانى: أليس من الأفضل أن يذهب جنودنا الذين يقاتلون أعداءنا على الحدود مجردين من أى سلاح أم تفضلون أن يظلوا مسلحين كما هم الآن؟ وفكر غير قليل من الحاضرين: إن الرد على هذا سوف يكون نعم، يظلون كما هم الآن.

وواصل السلطان حديثه: إن الصعوبة تكمن فى أن الإجابة على السؤالين يجب أن تكون واحدة لكليهما، إما نعم وإما لا لهما معاً،

دون تفرقة وعليكم أن تأخذوا فى الحسبان أن النتيجة إذا جاءت سلبية، وصوتت الأغلبية بلا، فسوف أهجر القصر، وأترك التاج، وأستعيض عنه بعصا الراعى، وألبس الصوف الخشن، بدل الخز والأرجوان، وأنسحب إلى الصحراء أمضى فيها بقية أيامى.

وما إن أنهى السلطان كلامه حتى وقف بلتسار بن عربوش راهب معبد سينار، وأخذ الكلمة:

«أيها الملك العظيم، الجليل بين كل عظماء الملوك والسلاطين، المحترم من كل الأمم والشعوب، ومنافس الآلهة فى معابدها، استمع - أرجوك! - إلى أقل إنسان فى شعبك، ولكنه الأكثر ولاء وصدقاً ووفاءً وحباً بين خدامك.

لقد دعوتنا إلى الاستفتاء خمس مرات: مرة توسلت به إلى عون شعبك فى دعم شواطئ نهر الفرات العظيم، لدفع أذاه حين هطلت الأمطار غزيرة، وسالت أودية بقدرها، ودفعت الفيضانات العالية بالمياه خارج مجراه، فتدفقت فوق حقولنا وأهلكت الحرث والنسل، دمرت المحاصيل، واستحالت الحقول الخضراء الزاهية إلى طين، ثم أصبحت أرضاً قاحلة جدباء.

ودعوتنا إلى استفتاء ثان تضمن خطتك التى أعددتها لمحاربة الوحوش الضارية التى اجتاحت ودياننا فى كثرة وقسوة، فافترست أغنامنا، وهاجمت أطفالنا. ومرتان أخريان استشرتنا فيهما حول

القضايا العامة، وفى كل المرات أظهر الوطن بأجمعه أنه متفق مع إرادة السلطان، فنفذت ما أعلنت، وعظمت مجداً، وامتلأت زهواً، ومدح المواطنون أفعالك، وشعروا بالكرامة لأنك استشرتهم، واعتبروا أنفسهم شركاء فى إنجاز ما وعدت.

ولكنك الآن، فى هذه اللحظة، وقد امتد سلطانك، واشتهرت قوتك، وطبق مجدك الخافقين، وبلغ أقصى أطراف المعمورة، تدعونا من جديد لتسألنا عن شيء بالغ الغرابة، لا يستطيع فلكى ولا منجم ولا ساحر، حتى لو كان من كلدانيا، أن يجد له حلاً. باستثناء الآلهة، وهم لا يتخذون من أجسام البشر سكناً، ولا فى فهمهم مقراً، كيف نرد على السؤالين إما بنعم وإما بلا، وهما يتصلان بمشكلتين مختلفتين تماماً، وليس بينهما أية علاقة أو رابطة، كهذه القضية التى تعرضها علينا الآن؟ اسمح لنا أن نرد على كل سؤال من هذين السؤالين المختلفين رداً مستقلاً دون ربط بينهما، أو لا داعى لأن تسألنا وتستشيرنا على الإطلاق، وافعل ما بدا لك، وكلنا نثق فى حكمتك!

وعلى أية حال، يا قائد القواد ومحسود الأقوياء! حذار أن تفسد ما يطمح إليه الشعب، من الخير لك، وللوطن، أن تجعل أوامرك المجيدة تستلهم ما يفكر فيه خدامك الطيبون المخلصون، وهم يعملون ويقصدون صالح عامة المواطنين، ودعك من المنافقين والانتهازيين، فهم يكثرون عند الطمع، ويقلون عند الفزع، ولن تجد حولك منهم أحداً إذا ألمت بالوطن ضائقة.

استمع الجمع فى صمت بليغ لخطبة بلتسار، راهب أرض سينار،

ولكن السلطان وقد انتفخ عجباً وزهواً وغروراً رد: ما نطقتُ به أمر، ما قلتُ ينفذ!

سرت وشوشة مثل وشوشة نهر الفرات عندما يحطم جسوره ويمضى حيث يريد، وطأطأ الرجال الأكثر شيخوخة جباههم النبيلة ذلاً وجللوها بالغبار والرماد، ومزق الولاة والحكام ملابسهم، وغطت النساء والجوارى عيونهن بالنقاب إشارة أسف وأسى.

حينئذ تحدث شيرو بن شرخس أمير فارس، وحاكم الولايات المحتلة:

- من ليس له الحق أن يفك ربطة حذائك، ومن ليس أهلاً لأن يطأ ظل خطوك عندما تصد الشمس، ومن ليس جديراً بأن يشرب فضلة كأسك، ولا أن يجلس إلى مائدتك، ولا أن ينظف بقماش معطفه غبار مقعدك، أعطه الكلمة أيها السيد القوى، يا من مجدك موضع زهو الوطن ورعب أعدائك، وثروتك من الذهب تكسف أشعة الشمس، ومن الفضة تسرق ضياء القمر، أعطه الكلمة ليقول: إنه لشرف عظيم له، أن يتحدث فى هذا الجمع الموقر أمام عظمتك، وها هى ذى كلماتى:

لقد وضعت الآلهة الرصانة على لسان بلتسار، والتعقل فى صوته، إذا لم تعن أيها الملك بالمخلصين، وجعلك العجب والزهو أصم لا تسمع رأيهم، ولا تدرك فطنة قولهم، فاسمع هذه النبوءة منى: كثيرون من

الذين سوف يردون على السؤال الأول بنعم، سوف يردون منطقياً على السؤال الثانى بلا. وكثيرون من الذين سوف يردون بنعم على السؤال الثانى سوف يردون منطقياً على السؤال الأول بلا؛ وأعداؤك الذين كانوا سوف يجيبون بنعم على السؤالين سوف يردون الآن بلا، لمجرد أن يعرفوا ما إذا كانت السلبية سوف تنتصر فتترك التاج.

لهذه الأسباب وحدها سوف يكون الإجماع أخيراً على معارضتك ممن قالوا لا من أصدقائك، وممن قالوها من أعدائك، وتلقى بنفسك فى مخاطرة لم يلزمك بها أحد وهذا كاف وحده لكى يجعلك تتراجع عن اندفاعك المجنون هذا، ولاحظ أيضاً يا ملك الملوك، ونور الأنوار الذى يلمع أيضاً حتى وسط الشعاع، أن كثيرين من قدامى المخلصين لك سوف يتخلون الآن عن إخلاصهم ووفائهم، وسوف يقولون لك: من هذا الذى يترك أولاده يتامى، ويتخلى عن رعاياه، ويدير ظهره لجيشه، بسبب مشكلات عارضة؟

إذا أردت أن تلقى بنفسك فى الصحراء كى ترتع وحدك فى الحشائش المغذية، تنمو فى كل مكان، بين الأحجار والحصى والزلط، وفوق التربة الخصبة، والرمال المنبسطة كما فعل جدك من قبل، افعله فى لحظة مواتية، دون أن تلزمنا بقرار فيه من القهر أكثر مما فيه من الشورى، وأن تأخذنا بمسئولية حل وحيد خاص بك دون غيرك، وليس من الضرورى أن تكون الإجابة واحدة على كلا السؤالين كما تفعل معنا الآن.

إذا كان الملك قد تقدمت به السن، ويستثقل الأمانة وتعب من حملها، وأرهقته مسئولية شعبه، فهو ينوء بها صباح مساء، ومحروم من ممارسة ما يمارسه أبسط رعاياه، من الأغنياء والفقراء على السواء: من نزهة فى غابة، أو لعبة رياضية، أوسباحة فى الفرات، أو جلسة هادئة على حافة بركة، أو لحظات حالمة مع جارية جميلة، ويود الراحة من هذه الأعباء، فليسترح فى سلام، مع الصوف الخشن بدل الحرير، وعصا الراعى عوض التاج، وسقاية الماء معلقة فى نطاقك، ولكن لا تثقل ضمائرنا بمثل هذا القرار، وليحمله ضميرك وحدك إذا شئت.

وإذا كان هذا ما يقوله محبوك، وهم لا يقولون لك إلا ما يبهجك وفى صالحك، ويدفع عنك الملل، فنحن أيها الملك القوى نرجو متواضعين متذللين عظمة قوتك، إما أن تدع استشارتنا فلا تسألنا عن رأينا فى أى شيء، وأن تفعل ما تمليه عليك الآلهة، وإما ألا تضع تاجك رهاناً فى هذه القضية، أو غيرها، وأن تبعده نهائياً عن لعبة الاستفتاء هذه، فتفصل بين الاستشارة والتاج.

وما إن أنهى شيرو العظيم، أمير الفرس وحاكم الولايات المستعمرة، كلماته حتى ساد الصمت، ونقل الإمبراطور نظره بين الخطيبين، ثم أظلم عقله ولف الضباب فهمه، وأخذ يردد:

– ما نطقتُ به أمر، ما قلتُ ينفذ!

* * *

وتحكى مدونات الإمبراطورية أن عجرفة الإمبراطور وخيلاءه،

وعجبه بنفسه، وتكبره فى تعامله، أصمت أذنه فلم يعد يسمع غير الأصوات التى يود أن يسمعها، وأظلمت ذاكرته فلم يعد يذكر من الأشياء إلا ما يحب.

وجاء أمره ينبىء عن تجبر وحمق: ملعونان كلاكما! ملعون أنت يا بلتسار، وملعون أنت يا شيرو، وليقطعوا جسديكما أرباعاً، تقدم للوحوش الضارية، ولتصبح قصوركما مقالب للزبالة والقمامة، لأنكما مستشاراى ولم تنصحانى، لأنكما صديقاى وتخليتما عنى.

إن إمبراطور بابل العظيم لا يلوى أحد ذراعه أبداً، وقد أمر بهذا، وهو يستبدل عصا الراعى بتاجه، والصوف الخشن بطيلسانه وحريره، وآنية الفخار بكئوسه الذهبية، وهدوء الصحراء، وصفاء الوحدة، وجمال السماء بصخب القصور، وأبهة الحكم، وفتنة القوة والسلطان!

القاضِيْ العَادل

(*) اقتبس الكاتب الأسبانى بدرو ربيبيد هذه الحكاية، وأبدع منها قصة بذات العنوان، وإن تصرف قليلاً فى الأحداث.

كان على ممنون، أمير طليطلة، واثقاً من قوته وانتشار العدل فى إمارته، حتى ليستطيع طفل صغير، أن يحمل على رأسه تاجاً من الذهب يطوف به فى أنحاء الإمارة، دون أن يخشى عدوان أحد.

وذات يوم سمع الأمير العظيم، أن واحداً من قضاته فى قرية ما من إمارته، قد اشتهر بعدله فى القضاء، وتحريه الحق فى الأحكام، فأحب أن يتأكد بنفسه من صدق ما قيل فامتطى جواده وخرج من طليطلة، سالكاً طريقه إلى تلك القرية، فى مظهر فارس بسيط، وقد وصل صبيحة يوم تفتح المحكمة فيه أبوابها عادة، ومن خطه أن كان يوماً بارداً وعاصفاً، فلما اجتاز باب المدينة، التقى عنده بمُقْعَدٍ تعافه النفس، مد إليه يده طالباً صدقة، فأعطاه على ممنون شيئاً من النقود، كما يفعل دائماً مع الفقراء والعجزة، ثم تطلع فرأى المقعد قد تعلق بالحصان، فنظر إليه قائلاً:

- ماذا أستطيع أن أصنع من أجلك؟

تستطيع أن تعاوننى على دفع الأذى الذى سيلحقنى من الناس والحيوانات، إذا أنا عدت على قدمى زاحفاً فى هذا الزحام!

- ولكن، كيف أدفع عنك هذا الأذى؟

- أن تحملنى خلفك على حصانك، وأن توصلنى حتى الميدان.

وفعل على ممنون ما طلبه الشحاذ المقعد، فأردفه خلفه، وساعده في الركوب، وعندما وصلا إلى الميدان سأله:

- إلى هذا الميدان تريد أن تصل، أليس كذلك؟

- نعم،

- إذن تستطيع أن تنزل؟

- ولكن انزل أنت أيضاً.

- سأنزل، إذا كان هذا يساعدك على النزول؟

- لا، ستنزل لأني أريد أن أظل ممتطيا الحصان!

- لأي سبب؟

- لسبب بسيط جداً، هو أنني صاحبه.

- أصغ جيداً إلى ما تقول، وتأمله!

- أنا مصغ ومتأمل.

- نحن بجوار القاضي العادل الذي يعقد جلساته علنا؟

- ألا تعتقد أنت، أن القاضي عندما ينظر إلينا، أنت بساقيك القويتين، وأنا بساقي المحطمتين، سيقول: إن الحصان يخص أشدنا حاجة إليه؟!

- إذا قال ذلك، فلن يكون قاضياً عادلاً.

- سيكون عادلاً، ولكن، من الممكن أن يخطىء.

وقال على ممنون لنفسه: يا إلهى! يا لها من فرصة عظيمة، هذه التى عرضت لى، والتى أستطيع أن أحكم فيها بنفسى على صلاحية ذلك القاضى وشهرته، ثم التفت إلى المُقْعَدِ وقال:

- هيا بنا إلى القاضى يا رفيقى!

* * *

وتقدما إلى المحكمة مع الجمهور، على ممنون آخذ بشكيمة الحصان، والشحاذ المقعد جالس فوقه، متوجهين إلى حيث تعقد المحكمة جلستها.

كانت القضية الأولى بين جزار وبائع زيت، وكل منهما يحمل طابع مهنته، فبينما ملابس الأول ملطخة بالدماء، كانت ملابس الثانى تنضح زيتاً، وتقدم الجزار وقال:

- لقد ذهبت لشراء زيت من حانوت هذا الرجل، وعندما أخرجت يدى من جيبى مملوءة بالنقود لأدفع له الثمن، جذب يدى بقوة، مستولياً على ما فيها، وقد جئنا إليك لتحكم بيننا، لمن تكون النقود.

وبعد أن انتهى الجزار من ادعائه، أعطى القاضى الكلمة لبائع الزيت ليعرض وجهة نظره فقال:

- هذا الرجل جاء إلى حانوتى يحمل زجاجة ليشترى فيها زيتاً،

وعندما ملأتها له، سألني عما إذا كنت أستطيع أن أصرف له بعض النقود الذهبية إلى عملات صغيرة، فأخرجت النقود التي عندي ووضعتها على المنضدة لأحصيها فما كان منه إلا أن هجم عليها وأخذها، محاولاً أن يهرب بها مع الزيت، فأخذت ألاحقه وأستغيث، ولكنه بالرغم من صياحي، لم يشأ أن يرجع لي نقودي، فأحضرته إلى هنا، لتحكم بيننا.

تأمل القاضي لحظة، ثم قال لهما: دعا النقود هنا، وعودا إلى في الصباح القابل.

* * *

ثم جاء دور على ممنون، والشحاذ المقعد - في الكلام، فقال أمير طليطلة ولم يكن القاضي يعرفه:

- يا سيدي، لقد جئت من قرية بعيدة لشراء بعض الأشياء من هنا، وعند باب المدينة التقيت بهذا التعس، الذي طلب مني صدقة، ثم توسل إلى أن أردفه خلفي على جوادي، ففعلت ما رجاني، ولكنه عند الوصول إلى المدينة لم يُرِد النزول، قائلاً: إن الجواد له، وعندما هددته باللجوء إلى القضاء، أجابني ساخراً «إن القاضي على قدر كبير من المعرفة، لا يستطيع معه أن يفهم أن الحصان لك!».

وذلك يا سيدي القاضي، هو موضوعنا الذي جئناك لتفصل بيننا فيه.

وتكلم الشحاذ المقعد :

– سيدى القاضى، لقد جئت ممتطياً هذا الحصان وهو ملكى، وعندما رأيت هذا الرجل راقداً فى الطريق، اقتربت منه وسألته، عما إذا كان متعباً أو مريضاً، فرد على : «إننى متعب جداً، فإذا كنت طيب القلب فاحملنى إلى المدينة حيث يجب أن أكون هناك!» هكذا قال لى، وقد فعلت ما رجانى، وعندما وصلنا إلى الميدان طلبت إليه أن ينزل، ولشد ما دهشت عندما سمعته يرد على، أن الذى يجب أن ينزل هو أنا، لأن الحصان ملكه.

سمع القاضى القضية فى هدوء واطمئنان، وبصوت رزين هادئ، قال لهما : اتركا الحصان هنا، وعودا فى الصباح القابل.

وفى اليوم التالى ذهب إلى المحكمة جمهور غفير، ممن لديهم رغبة قوية فى معرفة ما سيحكم به القاضى، فى هاتين القضيتين الهامتين والغامضتين فى نفس الوقت.

وافتتحت الجلسة، فوقف القاضى، ونادى على الجزار : خذ النقود فإنها لك! إنك أخرجتها من جيبك حقاً، ولذا فانت صاحبها!

ثم نادى بائع الزيت : أن جزاء محاولتك السطو على مال ليس لك، والكذب فى ادعائك، هو خمسون جلدة.

وأشار إلى الجنود بأخذه لتنفيذ الحكم فيه!

ثم جاء دور على ممنون وصاحبه انتظرا لحظات قليلة، ثم اقترب

القاضى منهما سائلاً : هل يستطيع كل منكما أن يتعرف على حصانه بين عشرين حصاناً أخرى مشابهة له؟

فأجاب على ممنون :

– بدون أدنى شك يا سيدى .

وأجاب الشحاذ المقعد :

– دقائق، وستعرف الحقيقة .

وأشار القاضى أولاً إلى على ممنون كى يصحبه إلى قاعة خلفية فى المحكمة، أودع فيها عشرين حصاناً متشابهة، طالباً إليه أن يتعرف إلى حصانه بينها، ففعل ذلك فى الحال دون صعوبة ما، فقال القاضى :



– حسناً . . اذهب أنت، ثم أرسل إلى الشحاذ المقعد .

وجاء هذا الأخير، ولما كان ذكياً فقد ميز الحصان مشيراً إليه بإصبعه فقال له القاضى :

– اذهب فانتظرنى فى المحكمة .

وفى المحكمة وقف القاضى يصدر حكمه، اتجه إلى على ممنون وقال :

- إن الحصان لك، وتستطيع أن تأخذه حالاً.

ثم اتجه إلى رجاله، وأشار إليهم، أن يأخذوا الشحاذ المقعد وأن يجلدوه خمسين جلدة.

* * *

ذهب على ممنون بحصانه، وعندما عاد القاضى إلى بيته، ألفى هناك أمير طليطلة ينتظره على باب داره، فسأله القاضى:

- ألست مسروراً من حكمى؟

- بلى يا سيدى القاضى، ولكن الذى أريد أن أعرفه، هو هذه الفطنة العالية التى تلهمك العدل فى قضائك، وأحب أولاً أن أعرفك بنفسى، فأنا لست تاجراً، وإنما أنا أمير طليطلة فى زى تاجر!

وحاول القاضى أن يقبل يده، ولكن على ممنون رفض ساحباً يده، ومتابعاً حديثه:

- هيا يا سيدى، أريد أن أعرف، كيف استطعت أن تعرف أن النقود للجزار، وأن الجواد لى؟

- الأمر بسيط جداً، لقد كانت النقود والحصان فى قبضتى طوال الليل، ألم تلحظ كيف كان ذلك الذى تلقى جزاءه خمسين جلدة، متسخاً بالزيت وخاصة فى يديه؟

- نعم.

- حسناً . . لقد أخذت النقود، ووضعتها حالاً فى كوب من الماء، تركتها فيه طول الليل، وفى الصباح عندما مضيت لأفحصها، رأيت الماء وليس فيه أى أثر لنقطة واحدة من الزيت تطفو على وجهه، فعرفت أن النقود للجزار .

- حسن ما صنعت . . والآن، كيف عرفت أن الحصان لى ؟

- الحق أنى فكرت فى قضيتك كثيراً، وفيما يجب أن أفعل، وأقلقتنى طوال الليل، وحتى وقت قليل من إصدار الحكم، لم أكن أعرف الحقيقة، وعندما صحبتكما حيث الخيل، لم أكن أريد أن أختبر مقدرتكما فى التعرف على الحصان، فقد كنت واثقاً من ذلك مقدماً، كنت على ثقة من أن كليكما يستطيع أن يتعرف عليه بسهولة، ولكنى أردت أن أعرف الحقيقة من الحصان نفسه، وإلى من سيتعرف هو، إلى أى منكما؟ وعندما اقتربت إليه أنت، صهل وهش وبش، وكاد أن يعانقك، على حين أنه اضطرب وارتعش عندما اقترب منه المقعد الشحاذ، مما أكد لى أن الحصان لك!

وقف على ممنون مأخوذاً لحظات، معجباً بذكاء قاضيه وفطنته ثم قال :

- سيدى القاضى، كان الله معك، إن مكانك يجب أن يكون بجوارى دوماً، إننى فى حاجة إليك هناك . . فى طليطلة!

الطريق إلى الجنة (*)

(*) هذه الحكاية من بين ما سمع بلاسكو إبانييث أيضا Blasco ibanz (١٨٦٧ - ١٩٢٨)، وهو أعظم روائى إسبانى فى النصف الأول من القرن العشرين، فى منطقة بلنسية، جنوب شرقى إسبانيا، وضمنها كتابه « حكايات بلنسية »، وظل نشرها ممنوعا طوال حكم فرانكو (١٩٣٩ - ١٩٧٣)، ولكنها نشرت فى طبعات المكسيك والأرجنتين، وإسبانيا أخيرا.

حكى لنا سى سليمان بو غدير، القادم من شرقى الأندلس، أنه قبل أن يجيء طنجة كان يعمل مع آخرين سرا فى ضيعة بنى قاسم، استبقاهم الدوق من وراء ظهر الحكومة، ليعملوا فى ضياعه الواسعة؛ لمهارتهم فى الحرث والبذر، والغرس والإرواء والحصاد، على حين سيق رفاقهم الآخرون مقيدين فى الأصفاد والأغلال، من ضيعتهم ومن الضياع الأخرى، إلى السفن الراسية فى موانئ بلنسية ودانية وقرطاجنة أقلعت بهم من الأندلس، ثم ألقت بهم على شواطىء المغرب، أو استقرت بهم فى قاع البحر، رغم تظاهرهم باعتناق الكاثوليكية، لشك القسس فى إخلاصهم للدين الجديد الذى حُملوا عليه قسرا، ويترحم على من غرق منهم؛ لأنهم ماتوا على الإسلام، ويتمنى لمن وصلوا سالمين أن يوفقهم الله فى مهابطهم الجديدة.

وقص علينا أطرافا من حياته وصحبه، كيف أخفوا إسلامهم، يتوضئون سرّا، ويصلون خفية، ويقرءون القرآن بعيدا عن الأسماع، وأنه ضاق بحياته هذه، فتسرب إلى سفينة تجارية راسية فى مالقة، رشا قبطانها، فحملته تهريبا إلى طنجة. ثم رفع رأسه، وركز عينيه فى «القوّال»، وأشار إليه بإصبعه: خلّفت ورائى عم اسطفان، مثلك تماما، يقوم بدورك نفسه، مع شىء من اختلاف الطباع. يغادر عم اسطفان بيته كل صباح مبكرا، بنية أن يعمل فى قطعة الأرض الصغيرة التى يملكها، ويسخر منها دائما: إنها «أوسع من قبر بأشبار» وفى ضيعة

دوق مجاور يعمل بأجر، ليستعين بما يقبض- وقليل ما هو- على العيش.

وقبل أن يمضى إلى هذه أو تلك، يتوقف أمام «حان الشرق» القريب من بيته، ويأخذ مكانه المعتاد أمام الباب، جالسا القرفصاء إلى منضدة صغيرة من الصفيح، يلتهم طبقا من السجق المقلى فى الزيت، وشيئا من البيض، وكوبا من النبيذ الأحمر الرخيص، ويخط بمنجله على الأرض خطوطا لا معنى لها ثم يمحوها، وينظر إلى السائرين من الموسرين باحتقار شديد، وما إن يملأ بطنه، ويجرى الدم فى عروقه ساخنا، ويتهيأ للحركة، حتى يضع الشيطان فى طريقه صديقا ودودا، أو زبونا قديما، فى مثل حاله، أو أيسر حالا، يبحث عن أنيس، فيدعوانه إلى الجلوس معهما لتبادل الحديث، وآخر أخبار الضيعة، ويسخوان معه فى التحية، فعم اسطفان يحب الشراب، والكونياك منه بخاصة، فهو لا يشربه إلا مدعوا لارتفاع سعره، معه تجىء النشوة والدفء ونسيان واقعه، وتطول الجلسة، ويحلو الحديث والقص، وكأس تُملأ، وكأس تفرغ، واحدة تذهب، وأخرى تجىء، ومعها أطباق النُّقَل، قليل من الجبن والزيتون، والسلاطة الروسى والسردين، ولفافات التبغ لا تفارق فمه، والكل سعيد بحالة انعدام الوزن هذه، فالزمن ينصرم دون أن يحس به أحد، إلى أن تدق الكنيسة أجراس قداس منتصف النهار، فيحزم أمره، ويعود إلى بيته.

وفى المساء يعاود الرحلة والمحاولة، فى «حان الشرق»، ولن يتجاوزه أيضا، وإنما سوف يبقى فيه حتى ينتصف الليل، ويعاون صاحبه فى إغلاق أبوابه.

لقد تقدمت السن بعم أسطفان، وهن منه العظم، واشتعل الرأس شيبا، وترك الزمن والحياة بصماتهما واضحة على وجهه: تجاعيد لا تخطئها العين، وتؤدة فى القيام والقعود، ورعشة خفيفة فى اليد وعلى الشفاه، حين يأخذ كأسا وحين يردها، وأصبح يحب زيارة الحان والبقاء فيه أكثر مما يحب الضيعة والعمل، واكتسب مودة الروّاد واستلطافهم، وأحبوا الرجل العجوز سميرا متمكنا، واسع المعرفة بالحياة والناس، والأخبار والتواريخ والحكايات، فيها بعض الحقيقة، ونسيجها من خياله؛ خيال يتسم بالروعة والجاذبية، وخفة الظل، يصغى إليها الزبائن معجبين ضاحكين، يطلبونها فى إلحاح دائما، ويجيبهم واثقا، وفى تمنّع أحيانا، خاصة ما اتصل منها بالقسس، والرهبان والراهبات، ورجال الدين عامة، وصاحب الحان فى مكانه، وراء الطاولة، يسمع ويضحك ويعجب وهو سعيد، لأن الزبائن يأتون إلى هنا لينسوا هموم العمل والبيت والشارع، ومع هذه الحكايات ينسجمون أكثر، ويطلبون المزيد من الكئوس ويدفعون المزيد من الفلوس، وعم أسطفان يرد على كل كأس كونياك تقدم له بحكاية أجمل من سابقتها، ولا يجرى ذكر قسيس أو راهبة على لسان زبون -وما أكثر ما يذكرونهم ساخرين!- حتى يلتقط الخيط ويسارع إلى دلق ما عنده:

القسس.. هؤلاء، يا لهم من أذكياء! من يثق فيهم، لقد حاول أحدهم أن يخدع القديس بطرس!

يقولها ويصمت.

ولكن نظرات الزبائن والأصدقاء، وفضول الغرباء تستحثه، فيمضى مع الحكاية إلى النهاية.

كان خورى قريتى، الأب بولس، من رهبان دير القديس سلفادور، موضع تقدير الجميع، لذكائه وصراحته ونشاطه وإخلاصه لمهنته. أنا لا أعرفه، ولكن جدى ما زال يذكره، ويروى لنا عنه حكايات وقصصًا، يجيء إلى بيتنا لزيارة جدته، يجلس قرب الباب هادئا، وقد عقد يديه فوق كرشه، فى انتظار كوب من الشيكولاته الساخنة بالحليب، أى رجل وأى جسم! إنه يزن قريبا من مئة كيلو جرام، وصُنْع عباءته يربك الكنيسة؛ لأنه يتطلب مقاسا خاصا، وقماشا أكثر، وترزيا يحسن التفصيل لمن كان فى حجمه، وكل يوم يزور أحد عشر بيتا أو اثنى عشر، ويشفط فى كل واحد منها كوبا كبيرا من الشيكولاته بالحليب، وعندما كانت جدتى تسأله:

– أبانا.. أيها تحب أكثر: بيضا مع شيء من البطاطس المقلية أو شيئا من لحم الخنزير المقدّد؟.

يجيب الأب بولس فى صوت يبدو غطيطا:

– من ده على ده.. كله كويس ونافع.

رغم سمنة الأب بولس كان وجيها وسيما، مليح القسمات، ناعم الشعر، ينضح صحة وعافية، يتحرك دائمًا فى ملابس فضفاضة أنيقة، وفى أى بيت استقر يهدى شيئا من صحته وعافيته وقدرته، ومعظم الأطفال الذين فى دائرة عمله يحملون نفس ملامحه، ويجيئون فى ذات لونه وقسمات وجهه المستدير وعينيه الواسعتين، وأنفه الأقنى، وشعره الأسود الفاحم رغم شدة بياضه، تعالى الخالق الأعظم!

ولكن.. كل شيء رديء في هذه الحياة الدنيا، تستوى المسغبة والتخمة، والشره والقناعة، والكد والراحة، والمرض والعافية، فى كلٍّ يلتقى الخير والشر، ويمتزج النافع بالضار، متعكم الله بالجانب الخيِّر، ووقاكم مما فيه من سوء وشدة!

ذات يوم عاد أبونا بولس من حفل أقيم ابتهاجًا بتعميد طفل جاد إلى الدنيا وهو يحمل كل ملامحه، وقد انتصف الليل، وسكن الكون، ولفّ الهدوء كل شيء، فلا تسمع حسّا ولا همسًا، كان يتحرك ثقيلا، وئيدا في خطى قصيرة، كمن يحمل فى بطنه الدنيا بأجمعها، يردد فى سره، يقنع نفسه: «ظننت قدميّ تحملان بطنى، والحال أن بطنى تحمل قدميّ»، وما إن بلغ البيت، واستلقى على فراشه، حتى أرسل غطّة شديدة، تبعتها ريح عاتية، وبعدها انفجر كقربة ازداد الضغط عليها، وانطلق فى الفضاء كصاروخ، آخذا طريقه إلى السماء، فلمثله مكان مضمون هناك، وسوف يذهبون به أكيدا إلى الجنة، حيث السابقين إليها من رفاقه، القديسين والقديسات والرهبان والراهبات.

بلغ السماء السابعة، وقد انتصف الليل، ووقف بباب عظيم من الذهب الخالص، المرصع بالماس وألوان الجواهر، لم يرها من قبل إلا على نحور الصبايا الفاتنات من بنات الأغنياء، حين يحضر حفلات الزواج والتعميد والميلاد، وأخذ يطرق الباب خفيفا فى البدء، ثم بدأ يشتد تدريجا، ورد صوت من الداخل، فيه كل نبرات الشيخوخة والوهن:

– من أنت؟

– افتح يا أبانا القديس بطرس.

- من تكون أنت؟

- أنا القس بولس، من دير القديس حنا.

انفتح الباب قليلا، مواربا، وأطل من الفتحة رأس القديس الطيب، عجوز متهالك، بلغ من العمر أرذله، يحرك عينين متهالكتين زائغتين حائرتين، لا تكادان تستقران، وراء نظارة سميكة، غاضبا مزمجرا، ضائع الصوت بين الصياح والعطاس والسعال:

- قلة أدب، عدم شرف، عُدْ من حيث أتيت، ثقتك فيّ لا موضع لها، فليس لك مكان هنا.

- هيّا يا أبانا الطيب، افتح بورك فيك، لقد جن الليل، ولف الظلام الكون، ونحن أبناؤك نعرف أنك ودود عطوف، ونعرف أيضا أنك تحب الدعابة والهزار.

- أى دعابة تعنى؟! وأى هزار هذا الذى تتحدث عنه؟ لو أخذت عصا فسوف أُريك من أنا، وستعرف حقيقة طيبتى يا قليل الحياء، امض من هنا، أتظن أننى لا أعرفك على حقيقتك، يا شيطاناً يتخفَّى فى زى راهب!

- اصنع فىّ معروفا يا أبانا الصالح، كن بى رءوفا أيها الحبر الأعظم: «أنا مخطىء، أنا مذنب، أنا عاصى، هو راحم، هو غافر، هو كافى»، فأنت أهل للعفو والمغفرة، ألا يوجد عندك مكان، مهما يكن صغيراً وضيقا، ولو بجوار الباب؟.

- بعيد عنك! أى مخلوق أنت! إذا سمحت لك بالدخول فسيأتى

اليوم الذى تلتهم فيه ما لدينا من فطائر بالعسل ولحوم وطيور، وتدع الملائكة والقديسين جوعى صائمين وإلى جوار هؤلاء أسراب من الراهبات والقديسات يحتجن إلى حمايتى منك، ومن أمثالك، ولمزيد من الرعاية والعناية والرقابة، وكلها أعباء تثقل عاتقى، وينوء بها كاهلى، فى مثل شيخوختى، اذهب إلى الجحيم، أو اختر أى سحابة وتمدد فوقها، مثلك، ومن فى صحتك، لا ينال منه البرد شيئا.

أنهى القديس بطرس الحوار، وأغلق الباب غاضبا، وتأهب للذهاب كى ينام، وبقى الأب بولس واقفا فى مكانه، يتلصص على ما يجرى فى الداخل ويتسمع عن بعد أنغام ناى حزين، وقيثارة نشوى، من فتيان الملائكة، يهدونها فى هدأة الليل إلى صبايا الراهبات الفاتنات، الأكثر جمالا والأشد جاذبية وفتنة وسحرا، ومرت لحظات عانى فيها من قسوة البرد وسطوته، يحاول أن يجد لمشكلته حلا، وفكر أن يذهب إلى جهنم، ففيها شىء من الدفء على الأقل، ومن بداخلها يرحبون بالقادمين، وهى بدورها تنادى: هل من مزيد! من المؤكد أنهم سوف يرأفون بحاله، ويحسنون استقباله، تقديرا لسابق خدماته، وما بذل من خير فى الدنيا للكثيرين والكثيرات!

وهو يهم بالذهاب إلى جهنم، رأى غمامة تتحرك فى السماء، وتقترب منه، ثم انشقت عن شىء لم يتبينه فى البدء، كان غائما، غير واضح المعالم ، وتدريجا اقترب منه على مهل، وبدت شخصيته تبين شيئا فشيئا: امرأة ممتلئة، تسلك طريقها إلى الجنة، عبر باب السماء، فى تثنٍّ وترقّق وتراقص، تدفع أمامها نهدا كاعبا، وتحمل وراءها أردافا

متدافعة، رويهبة ماتت فتيّة، إثر مغص قوى انتابها؛ لأنها أسرفت فى أكل الحلوى، اقتربت من الأب بولس، تأملته جيدا، وتفحصته على مهل، وقاسته فى نظرات عميقة نافذة كاشفة، ملؤها الشوق والرغبة، وقالت فى دلّ ناعم حنون:

– ألا يفتحون يا أبى فى هذه الساعة المتأخرة من الليل؟

– اصبرى! معك فُرجت، الآن سوف ندخل أكيدا..

فى الحال أعمل الأب بولس فكره وذكاءه وحيله، فهداه تفكيره إلى واحدة لا تخطر على بال أحد.

– تعرفين أن الحرب فى الأرض على أشدها مع الكفار، والجنود الذين يقتلون فيها يدخلون الجنة بلا حساب، دون أية صعوبة، تكريما لهم، وتقديرا لدورهم، كما أنهم يدخلون الجنة بالحالة التى يصلون عليها: فى ملابسهم الممزقة، ونعالهم الخشنة، وقبعاتهم المتهالكة؛ لأن ما عانوه من شدة فى الحرب يستحق بعض التعويض، على أية حال إذا لم تكونى تعرفين هذا، فها أنت قد عرفته!

وفى لهجة حاسمة أمرها بأن ترفع رداءها فوق رأسها، فاحمرّ وجهها خجلا، وطأطأت رأسها حياءً، وفى نظرات متكسّرة، فيها رفض وقبول ودل وإغراء، ردت بصوت غنج:

– ولكن.. يا أبى..

صاح بها الأب بولس فى حزم:

– افعلى ما آمرك، لا تكونى هبلة، لا تناقشينى فى الأمر، بعد

دراساتى الطويلة، التى قمت بها، ماذا تعرفين أنت عن الطرق التى يجتازها المرء، حتى يستطيع أن يمرق من باب السماء، ثم يأخذ طريقه إلى الجنة.

وأطاعت الرويهبة على استحياء!

وبين كتل الظلام المتراكمة بدأت تلمع دائرة بيضاء، تضىء ما حولها، وتبدو قمرا ليلة تمامه.

- انْحنِ كما لو كنت تمشين على قدميك ويديك.. والآن اثبتى جيدا.

وفى وثبة واحدة استقر على مؤخرتها، وهى تحته تئن فى صوت مبحوح مختنق..

- أبى، كم أنت ثقيل، يكاد نَفَسى ينقطع، وقلبى يتوقف، وأردافى تتمزق!.

- لا عليك، تحمّلى، إنها دقائق، وبعدها نجتاز الباب معا، وندخل الجنة سويا، حاولى أن تجىء خطاك ونحن نجتاز البوابة وثبات متقطعة متواصلة، وبينما القديس بطرس يلتقط مفاتيحه، ويغلق أبوابه، ويتأهب للذهاب، سمع طرقا خفيفا:

- من الطارق؟

ورد صوت واهن ضعيف:

- أنا جندى غلبان من سلاح الفرسان، قُتلْت منذ لحظات وأنا أكافح ضد الكفّار، أعداء الله، وجئت هنا على ظهر حصانى.

ورد القديس بطرس، وهو يفتح الباب مواربا:

- مرّ، ادخل يا مسكين.. ادخل.

وفى الظلام المتراكم، رأى القديس بطرس الجندى ممتطيا صهوة جواد غريب عليه، لم يسبق أن رأى مثله، لا يعرف كيف يظل هادئا، وفى صوت يكاد يكون همسا أخذ يردد: كم هو عصبى هذا الحيوان!

وعبثا حاول الأب الموقر أن يتبين له رأسا على حين تبدو مؤخرته ملساء ناعمة، بيضاء ناصعة، ممتلئة مترجرجة، يثب دون توقف، وخشية أن يصيبه برفسة تأتى عليه ابتعد عنه، واكتفى بأن يربت على مؤخرته عن بعد، فى حذر وحيطة، وهو يدعو الجندى:

- ادخل أيها الجندى الشجاع، تقدم وانظر كيف تهدىء من روع هذا الحيوان العصبى!.

حين استقر الأب بولس داخل السماء، فوق عجز الرويهبة، كان القديس بطرس يغلق الباب فى تلك الليلة، وهو يحادث نفسه:

- يا إلهى، أىّ معركة رهيبة تلك التى تدور رحاها على الأرض ضد الكفار، وأى سلاح يستخدمون فى اللقاء، لم يتركوا للفرس المسكينة رأسها.. ولا حتى ذيلها!



مِنْ فَتُح لِفَتُح تِفْرِق كِتير

تعوّد سيدى عبد العزيز قائد القصر الملكى أن يستقبل مدعويه من العلماء والفقهاء بعد صلاة المغرب، وأن يجرى معهم حوارات متصلة فى كثير من القضايا العلمية، وأن يدور حديث طويل حول كبار العلماء والأدباء الذين عرفوا بالفصاحة والبلاغة، وشهروا بالكلمة الفاصلة، والحكمة القاطعة.

ولأن **سيدى عبد العزيز** كان غنياً ومحسوب الملك كان دائماً يستقبل ضيوفه فى حفاوة بالغة، ويغرقهم فى كرمه وفضله.. مما يلهج ألسنتهم وبطونهم بالشكر والعرفان، مما أكسبه شهرة واسعة وصيتاً عريضاً، وجعل منه حديث المجالس والندوات.

غير أنه فى هذه الليلة رغب أكثر فى أن يزهو بفخامة قصره، وترف رياشه، وغناه وثروته، وقدرته وكرمه، فقد كان بين المدعوين **رحومة الدروى**، صاحب القلعة القوية، المحكمة الأبراج، المتعددة الطلائع، يقف فيها ألف سهّام ورمّاح ونبّال، تنهض شامخة فى جبال الأطلس، تعلن عن قوة سيدها، وتحفظ هيبته، وتعلى شأنه، وتفرض سلطانه على كل القبائل الجبلية البربرية التى حوله.

كان القائد من أصل أندلسي، ينحدر من تلك الأسر التى لمعت فى الأندلس - رد الله غربتها، وأعلى من جديد راية الإسلام فيها! واشتهرت بالعلم الواسع، والثراء العريض، والتحضر والرقى والرقة فى المعاملة، وتنفر بغريزتها من كل ما هو أفريقى وبربرى، وتحمل معها شيئاً من بقايا الصراع الذى أودى بهذه الرقعة الغالية من أرض الإسلام، فأراد القائد الأندلسى الأصل، العربى الدم، فى هذه الليلة، أن يطفىء وهج القائد البربرى، فأشاع فى قصره كل ألوان الترف والرخاء التى يحلم بها أى غنى مقبل على الحياة، أو أى حاكم أمير.

كانت هناك فرقة موسيقية كبيرة من خيرة العازفين على العود والربابة والشبابة والقانون، والكمان والصنج، ومغنيتان يمنيتان تشدوان بمهارة على أنغام الموسيقى، يطربون الحاضرين ويضفون على الجو فتنة وبهجة وإشراقاً.

ويعبق الجو بخير ما عرفه الشرق من بخور وعطور، ومن كل الجوانب يشيع دخان هامس خفيف، يحمل أريج العنبر والصندل والعود، وفوق رءوس المدعوين تنثر الجوارى مطراً رقيقاً ونفاذاً من ماء الزهر والورد.

ثم حانت لحظة تناول الطعام.

كان كل شىء معداً، وأخذ **سيدى عبد العزيز** يتهيأ لإعداد الشاى الأخضر.. بالنعناع الطازج الجميل، وفى طرف من حجرة المائدة صحاف ضخمة من الفضة المنقوشة، تلمع كجواهر الدر الثمين، إلى جانبها صوان متوسطة، فوقها فناجين، صينية صغيرة فاخرة.. ذات

ألوان متعددة وفى أطباق من البللور المنقوش بالزخارف العجيبة ترقد أصناف من الأعشاب العطرية الرائحة النادرة الوجود.. جىء بها من قمم الجبال العالية، تفتح الشهية وتهضم الطعام وتضفى على الجلسة جوا حالماً.

وبعيداً وقف صف طويل من سوداوات جميلات فى انتظار إشارة البدء يحملن فى صوان فضية أصنافاً من الحلوى المغربية، أنواعاً لا تخطر على بال، محكمة الصنع، حلوة المذاق، فطائر محمرة بالزبد، ومحلاة بالسكر، أو فوقها العسل، ومعجنات باللوز المعطر، فى أشكال مختلفة يسيل لها اللعاب وتسمر فوقها العين، وحولها تتحرك كل أعصاب المعدة!

ولم يطل به الفكر، فقد جاءه صوت **الدروى** مجلجلاً:

- هذا الشاى ما طيب.. ألا يوجد سكر! وكان ذلك يعنى أن الشاى لم يعجبه، كيف وهو من أفضل أنواع الشاى الصينى؟ وأسرع رئيس الطباخين ليواجه العاصفة التى وقعت على رأسه، كان يعرف أن السكر نفد ومع الأمل عاد من جديد يبحث فى مخازن الطعام، وأركان المطبخ، ولكن.. ولا حبة سكر واحدة!

واستغرق التفكير **سيدى عبد العزيز**، مهموماً محبطاً، يعجب من

الظروف التى تسخر منه فقد كان الإعداد عظيماً، وتم كل شيء بحكمة واقتدار، وبلغ الترتيب غايته، ولكنهم لم يحتفظوا ولو بقليل من السكر لمن يحبون الشاى مسكراً، ونسى هو أن يتلافى النقص حين أخبروه، لم يكن على أية حال يتصور أن القصر ليس فيه ولا حبة سكر، وأن **الدروى** يحب المزيد منه فى الشاى!

حاول **سيدى رحومة الدروى** أن يخفف من وقع الطلب على سيد الدار وقد أدرك عدم وجود المطلوب، فراح يلمح من بعد، ويوشوش معلقاً، ويحاول أن يقنع غيره فى خبث خفى ماكر مغيظ، وفى همهمة ساخرة جادة:

– إنها إرادة الله، ولا راد لقدره، قدّر ولطف، نؤجل الوليمة؛ لأن الوقت متأخر، وقد تقدم الليل، وليس من الممكن أن نجد سكراً إلا فى الجانب الآخر من المدينة، مما يجعل الحصول عليه يتأخر كثيراً، فيتأخر المدعوون بدورهم، ويستمر الجمع حتى ساعة متقدمة من الليل، وهو أمر لا يتفق مع أناس قد تقدمت بهم السن. ونادى القائد: **فتح!**

فظهر فى الحال فتى فى ربيع العمر، لما يتجاوز الخمسة عشر عاماً، تطل من عينيه مخايل النجابة والذكاء والفطنة، ويتمتع بشهرة مؤكدة فى خفة الحركة، وسرعة العدو، وامتداد الخطو، كما يقول الشاعر القديم: «له أيطلا ظبى، وساقا نعامة، وإرخاء سرحان، وتقريب تتفل»
وواصل سيد البيت أوامره:

- **فتح**، عليك أن تحضر السكر من الجانب الآخر من المدينة، قبل أن يرتد إليك طرفك، سامع!

واختفى الفتى كشبح، وحاول القائد أن يتماسك وهو يرتعش من نفاد صبر ضيوفه، ويلحظ تعجلهم المائدة، ويرقب فى عيونهم ضيقهم لتأخرها، وهو من حين لآخر يطمئنهم:

- **فتح** ذهب سريعاً، سوف يعود فى لمح البصر.. لا بد أنه الآن تجاوز حوزة السمك.. وصل إلى السوق.. أؤكد لكم أنه الآن فى الجانب الآخر من المدينة، وكل مرة يتكلم فيها يزداد توتراً، ويبدو أشد قلقاً وعصبية، وتخرج الكلمات من فمه أسرع وأنقص، حتى كأن الحروف يأكل بعضها بعضاً، ويثب بعضها فوق بعض، فما يعرف السامعون ماذا يقول بالدقة:

- **فتح** اشترى السكر.. **فتح** فى طريق العودة.. **فتح** عبر السوق.. مرّ الآن بحوزة السمك.. هو الآن فى شارع سيدى عامر.. آه، **فتح** وصل..

وصل **فتح** يحمل جوالاً من السكر، ووقف أمام القائد مطيعاً ومزهواً: مرنى يا سيدى!

وغمرت القائد راحة بلا حدود، هدأت أعصابه وانتظمت دقات قلبه، وعادت الحمرة إلى وجهه وبدأت نظراته تحمل دلائل الرضا، والهدوء، وغمرت روحه لحظات من السعادة العميقة وبهجة الانتصار

والتغلب على الأزمات وشعر باطمئنان المؤمن، تلك الطمأنينة التى وعدنا بها الرسول عليه الصلاة والسلام.

كان **سيدى رحومة** منفوشاً أمام إذلال صاحب القصر، وغشيته مسحة من إحباط وقد رأى المشكلة حلت، وملأت الغيرة داخله، وأقسم فى أعماقه أن ينتقم على نحو يجعل من انتقامه تاريخاً يتحدث به الركبان، ويصبح موضع السمر والعجب فى كل أنحاء الامبراطورية المغربية، وأن يجعل من هذا الأندلسى موضع سخرية الجميع واحتقارهم.

عندما عاد **رحومة** إلى قلعته أمر بأن ينادى فى الأسواق والحمامات والفنادق وحيث توجد تجمعات، بأن يذهب إلى القلعة كل الشبان القادرين على العدو السريع، الأقوياء الذين يسابقون الريح جرياً، واختار واحداً من بين الكثيرين الذين لبوا نداءه، وأسرعوا إليه، وكان واضحاً أنه على التأكيد أسرعهم عدواً، والمتميز بينهم بدناً، فهو يشبه فتحا الذى تركه عند القائد الأندلسى المزهو، ولكى يصبح التشابه كاملاً أمره أن يغير اسمه، ليصبح منذ الآن، وإلى الأبد: «فتحا» أيضاً، وأمره بأن يواصل التدريب الرياضى، والتمرينات البدنية، وسوف يتعهده بالرعاية أكلاً وملبساً، لكى تتحسن صحته ويقوى جسمه، ويرتفع مستوى عدوه، وسوف يختبر ذلك كله منه بعد زمن قصير، فإذا خرج من الامتحان فائزاً فسوف يغمره بالهدايا والعطايا والهبات!

ومرت أشهر ثلاثة، وأنبأ **فتح الجديد** سيده بأنه فى مستوى يسمح

له بأن يستجيب للتجربة المطلوبة منه، قادر على الفوز فى أى امتحان، ومواجهة أى تحد.

مع هذا التأكيد قرر **سيدى رحومة** أن يقيم حفلاً لم يسبق إليه، يجمع بين حضارة المدينة وتقدمها، وروعة الجبال وجلالها، وجمال مشاهد الطبيعة وحسنها، واختار لرعاية ضيوفه، والعناية بهم، أجمل فتيات جبال الأطلس، من أولئك اللائى يخطرن على السجاد مزهوات فتنة، ومترفقات تيها، معجبات بجمالهن، من بين ذوات البسمة الآسرة، والعيون السوداء الواسعة وأحاط شخصه بعلية قومه، وكبار أهله، وشيوخ القبائل حوله، وجمع حاشد من أصدقائه الفرسان.

من نافلة القول أن نذكر أن **سيدى عبد العزيز** قائد حرس السلطان كان من بين علية القوم المدعوين إلى هذا الحفل، وهو بعينه كان هدف سهام **رحومة**، الذى أراد أن يسلط الضوء باهراً على **فتح** خادمه، لكى يشعر هذا الأندلسى المغرور أنه ليس الوحيد الذى يملك خدما جيدين، مطيعين ومتميزين.

وجاءت إحدى الخادمات تخطر على استحياء، واقتربت من **سيدى رحومة**، وأسرت إليه: إن رئيس الطباخين يذكر بأن الشاى ينقصنا.

ولم يغضب **رحومة**، وكأنما كان ذلك مقصوداً؛ لأنه سوف يتيح له الفرصة لتقديم مزايا **فتح** خادمه، وإبراز مواهبه، والذى انشقت عنه الأرض فوقف يعرض خدماته.

وقال **سيدى رحومة**، فى صوت خفيض، ولكن يسمعه الجميع:

- إن على أن أواجه المشكلة الحرجة التى وضعنى فيها رئيس الطباخين، وأن أقدم لك يا **فتح** هذه الفرصة الطيبة، لكى تثبت جدارتك، وصلاحيتك لأداء وظيفتك فى الساعات الحرجة، عليك أن تحضر لنا الشاى من البقالة الكبرى، القائمة فيما وراء الجبل؛ لأنها تبيع شاياً صينياً جميلاً.

ثم توجه إلى الضيوف:

- إنه لن يغيب عنكم، ولن تبطىء عليكم المائدة فهو فى عدوه أسرع من الباشق.

وفى الحال عبر **فتح** أسوار القلعة ووضع قدمه على أول الطريق، واتجه نحو الوادى فى ظهر الجبل.

وفجأة خطرت بذهن **سيدى رحومة** فكرة سوداء ماذا لو فشل **فتح** فلم يصل أو وصل ولم يعد بشىء أو عرض له حادث فى الطريق؟

واعترته هزة باردة بدأ معها يتصبب عرقاً، وذهبت بكل التفاؤل الذى سبح فيه من قبل، ولفه فى بهجة غامرة فى أن لحظة القصاص من منافسه وإذلاله قد حانت، ومضت الدقائق بطيئة متثاقلة، وبدأ الرعب يجتاح داخله ويستولى على قلبه، ولكى يكسب الوقت، ويزيح عن نفسه الغم، راح يكثر من الترحيب بضيوفه ويطيل الحديث معهم فى أى شىء حول أمور تافهة، وحكايات بلا معنى، وترحيب مكرور غير معتاد، وثرثرة تخرج منه دون وعى ولا تفكير:

- **فتح** إن شئتم الحق سريع وقوى، وسوف ينجز ما كلفته به بعون الله القوى، الذى لا توجد قوة فى الأرض ولا فى السماء تعلو على قوته، ولا إرادة تسبق إرادته، وليس لأحد أن يعارض ما يريد، سبحانه لا راد لحكمه، ولا عاصى لأمره.. آه، لا بد أنه.. آه، لا بد أنه... فى هذه اللحظة قد تجاوز التل الذى يحجب عنا شيئاً من الوادى الجميل، هناك يرى النهر هادئاً وقوراً منذ مئات السنين، يروى ضياعى، ويهبها خصباً، ويضفى عليها روعة فتخضر وتزهو، وترتفع عالية تطاول السحاب، وتسد الأفق، وتحجب أشعة الشمس.

ولكن **فتحاً** تأخر، وبدأ هذا التأخر يثير الشك فى أعماق سيده؛ لأن المسافة ليست بالغة الطول، والإنسان العادى فى جريه يمكن أن يقطعها فى مثل هذا الوقت، فما بالك بفتى كالزرافة فى جريه، واتساع خطوه، وسرعة عدوه، وبينما **رحومة** يتفحص عيون المدعوين وكأنها تسأله: ترى هل ذهب **فتح** ليبحث عن الشاى فى الصين، فكر **سيدى عبد العزيز** فى حكاية تلطف الجو، وتذهب بالملل، وتنسى الجالسين قصة فتح الجديد، ويشغل آذانهم بالكلام ليلهى بطونهم عن الطعام فقال:

يحكى أن امرأة عجوزاً كانت فى طريقها من القرية إلى المدينة لتبيع ما عندها من بيض فى السوق، وقبل أن تبلغه صدمتها عربة

يقودها بغل قوى فأوقعتها أرضاً، واصطدمت سلة البيض بالأرض بقوة، فلم تبق بيضة واحدة سليمة، فأخذت تبكى بحرقة، وتصرخ بصوت مرتفع، فقد كان هذا هو كل رأس مالها، فرق لها قلب صاحب العربة ونزل يواسيها وأفهمها أنه سوف يدفع لها ثمن كل ما كان معها من بيض، وسألها عن عدده، فردت حائرة:

– سيدى، أنا لا أعرف كم بيضة كانت معى، ولكن إذا بعته بيضتين بيضتين، تبقى فى النهاية بيضة واحدة، وإذا بعته ثلاثاً ثلاثاً زادت فى النهاية واحدة أيضاً، وكذلك إذا بعته أربعاً أربعاً، أو خمساً خمساً، أو ستاً ستاً، ولكن إذا بعته سبعاً سبعاً، تطابق الحال فلم يبق معى فى النهاية شىء.

فاحسبه أنت، وادفع لى، وأنا راضية بما تراه.

وقبل أن يلتفت الأندلسى إلى سامعيه ويسألهم عن عدد هذا البيض، التفت **سيدى رحومة فجاة** إلى الباب وصاح:

– **فتح**، خادمى الممتاز، الله يحميه، فهو وحده يعرف كم من الفضائل منحه ووهبه وكم من الميزات خصه بها، لقد عاد...

ونادى عليه.

ودخل الفتى، وسأله **رحومة**:

– أين الشاى؟

- أنا لم أذهب بعد يا سيدى، فقد ضاعت فردة حذائى وعبثاً حاولت العثور عليها!

وانفجر المجلس ضاحكاً، ولكن ضحكة **سيدى عبد العزيز** كانت من القوة والعمق والشماتة لكى تجعل **سيدى رحومة** يسقط متهالكاً على أقرب مقعد منه!

* * *

وقبل أن يلملم «القوال» أطرافه ويتهيأ لإنهاء مجلسه، عقب على الحكاية بدعوى شاركه فيها السامعون:

- حماكم الله من الفضائح، ووقى وجوهكم من حمرة الخجل، ومن صفرة الوجل.

ورد الحاضرون:

آمين.. آمين!

... وقَد يغضَبُ القاضِيُ !

يوجد ولا يوجد.

يوجـد الحـبق والزنابق لمن يصلي على المصطفى ﷺ وعلى آله ومحبيه، غمركم الله برحمته، وأسبغ علكيم نعيم فضله، ومتعكم بالصحة الدائمة.. ويسر لكم الزوجة الصالحة، والأبناء البررة.

ثم الحمد لله، واهب الجاه والثروات، وموزع الخير والبركات ومقسم الأرزاق والأعطيات، ومانح النعم الكثيرات.

لقد فتح يده السخية **للحاج قدّور** الموثق يأخذ منها ما شاء بلا حساب فازدهرت أعماله ونفقت أرزاقه، وكثر زبائنه بسرعة مدهشة لم يألفها من قبل، وامتلأ جيبه بالمال، وشكراً له على ما وهب ومنح تملكته الرغبة قوية فى أن يحمل لأسرته بعض ما وهبه الله من خير، هدية منه، زيادة على ما عودهم إياه، وعبر الطريق إلى بيته لفته بهجة غامرة، وراح يتحدث إلى نفسه، بصوت مسموع: ماذا أفعل وماذا أترك يا إله **الحاج قدور**، قدور أستاذ كل الموثقين!

فيما يبدو لى، من الخير أن أكمل فرحتى بأكلة عظيمة وشهية لأسرتى تملأ بطون الأولاد والبنات، وترضى الزوجة والأخوات، ولا تحتمل الخطأ والصواب، وبعدها يغطون فى نوم عميق، وأبقى أنا وأم البنين وحدنا يقظين نكمل المشوار، ولكن خد بالك، لا تنس أن الأبواب مفتحة على الخارج، ونظرة الحسود قارصة لاذعة، ومضنية قاتلة ويمكن أن تخلف وراءها ضحايا وأشلاء.

استدار الحاج المحظوظ فجأة، ورفع قامته وثبت خطاه وأخذ طريقه إلى السوق لكى يشترى خير ما هناك من لحم وفاكهة، وهو فى الطريق مرّ به صياد، وعرض عليه سمكة موسى كبيرة وجميلة، أبهجت الموثق وبهرته فبرقت عيناه، وعلا وجيب قلبه، وأوقف الصياد وأخذ يساومه ويفاصله، واحتد الأمر بينهما حتى أوشك أن يتحول إلى شجار وفى النهاية سلم الصياد بما أراد المشترى فدفع له الحاج قدور خمسة ريالات، دون أن يرى فى الثمن غلواً أو مبالغة.

وعلت البهجة أسارير الرجل الطيب، وأحس بالسعادة تغشاه من كل جوانبه فأمسك بالسمكة، وراح يهزها وعلى إيقاع أغنية شعبية أخذ يتغنى بها، مردداً بعض الوصايا التى قرأها فى ألف ليلة وليلة على لسان شهرزاد وأخذت الأفكار تتزحلق فى خياله، واحدة وراء أخرى إلى أن انتهى عند فكرة واضحة ثبت عليها، واستقرت فى ذهنه، ولم تتحرك من مكانها وبدأ يردد هواجسه فى كلمات خافتة.

حمقاء وجاهلة هذه الأيام التى نمر بها، ولكنها لم تبلغ من الحمق حدا تحول فيه بين مسلم تقى وبين أن يقع على كنز ثمين فى بطن هذه السمكة ولم لا؟ ألم يحدث فى الأيام الخوالى أن وجد المحظوظون أحجاراً نفيسة وجواهر غالية فى بطون الحيتان؟

وجُنّ بهذه الآمال وبدا له قشر السمكة فى توهجه كأنه قطع من الماس، ألمع من ماء بحيرة صافية، يخفى وراءه كنوزاً سوف تغنيه إلى الأبد ولن يحتاج معها إلى العمل والكد، ولم يخرجه من الذهول وشرود الفكر إلا تحية ألقى بها عليه فتى:



– السلام على هذا الوجه الصبوح .

– وعلكيم السلام ورحمة الله وبركاته يا بنىَّ .

– أصاب الله بالعمى من ينظر بسوء إلى سمكتكم الجميلة، كم كلفتك يا والدى؟

– خمسة ريالات!

– صحة وعافية .

واصل الموثق طريقه ومضى لسبيله، وبعد برهة من سيره التقى بسيدة محترمة منقبة، وما إن رأت ما فى يده حتى بادرته :

– بسم الله الرحمن الرحيم، الواحد الأحد، الفرد الصمد لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، قل لى يا حاج قدور : كم ثمن هذه السمكة اللذيذة التى سوف تمتعك وتجعل يومك ملكياً؟

– ريالان!

ثم أضاف **الحاج قدور** فى نفسه، وقد بلغ به الضيق مبلغه : لعن الله من يندفع ليفسد علىّ متعة هذه الأكلة، ألا يمر واحد فقط، غنى أو فقير، صغير أو كبير، دون أن يدس أنفه فيما لا يعنيه، وأن يعرف من

أين جئت بهذه السمكة وكم ثمنها؟ ثم بصق فوق السمكة لكى يحصنها من الحسد ولكن، آه... حتى ولا هذا بعث فيه الثقة وجعله يمضى مطمئناً لأن كل واحد من أبناء جيرانه يصادفه فى الطريق يمتلىء فضولاً، ويدس عينيه فى السمكة متعجباً، أو مستكثراً، أو متلهفاً، حتى أن عجوزاً عوراء وقاكم الله الشر وحماكم من السوء! جرؤت على أن تسأله أيضاً، ومثلها يأتى بالسوء من أطراف الدنيا، فتشاءم الموثق منها، وغضب من هذه الصدفة اللعينة، وأقسم بالله ورسوله وملائكته وكتبه واليوم الآخر، أن شراً سوف يصيبه مع أول سائل يلقاه.

ولسوء الحظ كان أول من صادفه رجل ولىّ، كث اللحية، أشيب الشعر خطيب مفوه، وبليغ مقتدر، فسلم على الحاج قدور بلطف ثم سأله:

– أطال الله حياة خير فقهائنا وأعلمهم، وأنقاهم روحاً، وأذكاهم فهماً، إنها سمكة جميلة.

ولم يسمع الموثق أكثر من هذه الجملة، وهاج من الغيظ، أعماه الغضب، فضرب وجه الرجل الطيب بالسمكة على جانبيه فى سرعة وحنق، مما أوقعه فى اضطراب وذهول شديدين.

وأحدث الاعتداء هرجاً شديداً بين المارة والمشاهدين وهم يجهلون خلفيات الأمر، والسوابق التى أثارت غضب **الحاج قدور** وجعلته يتصرف على هذا النحو، وقد تعاطف المارة مع الرجل الولى وأظهروا

استياءهم مما حدث له صراحة وفى أصوات مرتفعة وتميز من بينها كلها صوت الولىّ وراح فى صراخ جريح يرمى بوابل من الشتائم على الحاج والناس يسمعون:

- أنت كلب وابن كلب، يا جاحد، يا منكر الله، سوف أشكوك إلى القاضى ليحكم بينى وبينك، يا ملعون، يا قليل الحياء، انظر إلى شيخوختك المليئة، بالخزى والعار، خرب الله بيتك آمين.. آمين!

وما إن انتهى من كلماته حتى اتجه إلى القاضى يطالب بحقه، وتبعه المعتدى ودخل الاثنان على القاضى.

وبدأ القاضى المحاكمة فى الحال، وبعد أن استمع إلى الشهود وكان هائجاً وثائراً لفداحة الاعتداء بلا مبرر على ولىّ طيب وأخذ يوجه الكلام إلى المعتدى المسىء:

- هل جُننت يا **قدور**، يا ابن الخطيئة يا وش اللعنة؟ يجب أن تقطع يدك حتى لا ترتكب ثانية هذا التصرف المنافى للعرف والأخلاق وضد من؟ ضد هذا العجوز ذى اللحية الوقور، عليك وحدك يقع إثم الجريمة وستنال ما تستحق من عقوبة تجعلك عبرة لغيرك سوف أجلدك كما لو كنت شيالاً فى السوق، أليس لك فى خيرة سابقيك من الموثقين وصالحيهم أسوة.

كان قدور يستمع إلى حديث القاضى، وقد تداخلت الكلمات فى سمعه وغُمّ عليه معناها وقد استمع إلى هذه الشتائم مطأطىء الرأس

مطرقاً زائغ العينين نصف ذاهل، وفجأة تفجر الدهاء والمكر والحيلة فى داخله، فقاطع القاضى:

- صل على النبى.

واستجاب القاضى مطيعاً ومردداً الصلاة على النبى، فذلك واجب كل مسلم عندما يسمع اسمه، ولكى لا ينقطع حديث التوبيخ والزجر فيفقد جانباً من فاعليته، أجاب فى سرعة وبحمية زائدة:

- اللهم صل عليه، وعلى آله، وبارك فيه، ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين.

ثم واجه المتهم، وواصل توبيخه:

- قلة الحياء هذه التى حدثت منك لم نسمع بها أبداً لا نحن ولا آباؤنا من قبل.

فقاطعه الحاج قدور:

- صل على النبى.

ولم يكن القاضى فى حالة تسمح له بأن يستجيب للحاج قدور ولكنه مع ذلك هز رأسه وهو يردد:

- ﷺ وبارك فيه آمين.

ثم توجه إلى العجوز الطيب وأضاف:

- يا أبا الفضل، قرين الشيطان هذا - لعنه الله - أساء إليك..

وفجأة قاطعه الموثق ثانية:

- صل على النبى.

وفى هذه اللحظة استدار القاضى كى يرفع دعاءه وقد انتابه سخط شديد، وبدأ يلعن **قدورا** وأسلافه، كابرا عن كابر، وجدوده طبقة وراء طبقة، والله وحده يعلم إلى أين كان سيصل بهم، لولا أن المتهم اعترضه من جديد، وفى هدوء شديد، قال له:

- صل على النبى.

وهنا كان الغضب قد بلغ من القاضى غايته، واستحوذ عليه كلية فخلع خفه، وبقوة قذف به فى وجه **الحاج قدور** الذى قابل صفعة الحذاء فى أنفه بابتسامة، وقال:

- يا سيدى القاضى طيبتك شاعت فى الآفاق وعدلك اشتهر بين كل الناس، وعرف عنك القاصى والدانى فِكْرُك المتزن، وجِدك فى تناول القضايا، ومع ذلك أتى فعلك على كل ما تخيلته فيك، وتصورته كغيرى، لقد غاظك صبرى، وما زلت صابراً، ولن أطلب منك شيئاً غير أن تصلى على نبينا ﷺ، وأن تدعو الرحمن الرحيم أن يسعدك ويوسع لك فى الرزق.

ترى إلى أى مدى كان سيبلغ بك الحال يا سيدى القاضى لو كان ما طلبته منك إثماً أو شيئًا طائشاً؟

لهذا أحبك بقلق

الحمد لله القوى القادر، القابض الباسط، الفعّال لما يريد، له الملك وله الحمد، وهو على كل شىء قدير.

والصلاة والسلام على سيّدنا محمد ﷺ رسول الله ونبيه، أفضل الخلق أجمعين، أرسله بالهدى ودين الحق، لينذر العالم كله، ويدعوهم إلى كلمة سواء، ألا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئا، وينشر راية الإسلام على ربوع العالمين،

الحمد لله الذى أمر عباده المؤمنين أن يكونوا أسخياء، وأن يفتحوا أبواب بيوتهم لمن يطلبون القِرى، ويسألونهم الحاجة، أو يبحثون عن شىء من الطعام.

كان صاحبنا الذى سوف نقص حكايته، مجرّد فلاح متواضع، وفيا لمبادئ الإسلام، متبعا هدى القرآن، بيته مجرد كوخ يقوم على مرتفع،بعيدا عن كل طرق المملكة، وعن مساكن أهلها، وهو فى عزلته هذه، ورغم تواضع حاله، يقدم المأوى لبعض عابرى السبيل الذين يضلون الطريق ليلا بسبب العواصف القوية، وينتهى بهم الحال إلى كوخه.

فى ليلة دامسة الظلام، عابسة الوجه، كثيرة المطر، شديدة العواصف، اجتاز عَتبةَ الكوخ عابرُ سبيل، قال: إنه مجرد فقير غلبان، لا يملك فى الدنيا غير معرفة القراءة والكتابة، وجاء يبحث عن عمل يتعيّش منه فى السوق القريب، وأتبع ذلك بسيل من الدعوات والتبريكات لمن يعاونه على بلوغ هذا المسعى المأمول.

تأثر الفلاح وأسرته من مظهر هذا الإنسان المسكين المغلوب على أمره، المقهور من ظروف الحياة، يعكس محيّاه قلقَ مطحونٍ مجهد، ويشى بدنه الهزيل بقسوة جوعٍ متواصل، وتطل من عينيه لهفة متوترة إلى شىءٍ يَطعمه، وقد تأثر الفلاح وأسرته بما رأوا، ووجدوا علاجه السريع فى رغيف عيش، وشىء من الزبد، وكوب من الشاى الأخضر، وليس عندهم فى بيتهم ما يقدمونه غير هذا، فى هذه الساعة المتأخرة من الليل، والدنيا برد، والعواصف لا تهدأ، والرعد يصم الآذان، والبرق يلمع قويا وسط الضباب، وسكان الكوخ وضيفهم يلتصقون بالنار المشتعلة طلبا للدفء، وشعر الضيف بالراحة، ووجد فيما قُدّم له نجدة، فأكل بشهية، امتلأت المعدة وغنّت، واستراح الجسم المتعب وتعافى، وسرى الدم فى عروقه فنشط عقله وفكره وذاكرته، وأخذ يشكر للأسرة كرم ضيافتها وبشاشة استقبالها، وجميل قِراها، ويمجّد نبيل فعالها ويحكى لها من التواريخ والقصص ما يعرف ويتذكر، ولا يوجد من لا يملك أى شىء، وخاوى الوفاض دائما، عقلا وفكرا وخيالا، إنه يستطيع

أن يقـول الكثيـر، فـهـو صـاحب معـرفة واسـعة، وخـيـال لامع خـلاّق، والحمـد والشكر لله العلى القـدير الذى لا يجـرد الفـانين من كل شىء دائما، وتعلق الجالسون بشفتيه، يتابعون ما يقول، غارقين فى الضحك والبهجة والمرح، من ظرف ما يحكى ولطف ما يقص فى براعة وخفة، ومعه أخذوا يقضون وقتا طيبا، قَلَّما يتيسر لهم فى هذا المكان المنعزل.

وفجأة، طرقت الباب دقات عنيفة، وسمعوا من ورائه صوتا أجش عاليا، محطما نوعاً ما، يرجو فى ضراعة:

– باسم الله، وبحق رسول الله عليه الصلاة والسلام، غريب يطلب مأوى، وقد انقطعت به الطريق!

تردد الفـلاح الطيب، وبدأ يسـأل نفـسـه: أليس مـغـامـرة أن يفـتح البـاب، وكـوخـه لا يتـسع لضـيف أزيد، ولو لليلة واحـدة؟ ولكن مـا الذى سـيحـدث للطارق اللائذ به، لو لـم يسـتـجب له، وضـاع نداؤه وأمله، الله وحده يعلم ما تكون النتيجة، وربما كان هذا الطارق غريبا عن المنطقة، أو مريضا، أو تائها، ولا يعرف له مأوى آخر.

وانتصرت التقوى!

وفتح الفلاح الطيب الباب، وأفسح الطريق أمام ضيفه: شخصية تبلغ الستين عاماً تقريبا، نبيل الملامح، وضىء الوجه، مليح التقاسيم، حسن المظهر، قوى الشخصية، نظيف الملبس، رضىّ مبتسم، قدّم

نفسـه : إنه الشـريف **علي بن الصالح مولاى حسن**، وهو لا يزال على قيد الحياة!

وغمرت الفلاح بهجة غامرة، فاضت بقلبه، ونضحت على وجهه رضًا وغبطة، أى مجد نزل بداره، حين يستضيف فى كوخه المتواضع فارسا مرموقا!!

وقـال لنفسـه : لا علىّ، إنهـا الإرادة الإلهيـة وحـدها، هى التى زحزحت الكاتب، ضيفه الأول، إلى مكانة ثانية، شكراً لله على مجىء **الشريف على**، فهو رجل ممتاز، ينتمى إلى طبقة عالية، ومعرفته ذخر وأمان.

ولم يكد الكاتب الفقير يرى الحفاوة البالغة التى أحاط بها صاحب الكوخ وأسرته الوافد الجديد، حتى أخذ يوازن، فى عفوية، بينها وبين استقباله، رغم أنه كان طيبا، وما طمع لحظتها فى أكثر مما قُدّم إليه، وأن بعضا من خير هذه الحفاوة أصابه أيضا، ولكن النفس أمّارة بالسوء دائما، فشعر بالغيرة، وعرته كآبه غيّرت صفوه، وعكّرت مزاجه، وأفقدته الشهية، بعد أن كانت طيبة دائما، منفتحة للأكل فى أىّ لحظة، آناء الليل وأطراف النهار!.

وجاءت ساعة النوم.

وهنا تبرم الكاتب الغلبان، ولم يستطع أن يخفى ضيقه وضجره، إذ كان الفراش المريح من نصيب **الشريف على**، وكان نصيبه فراشا صغيرا جدا، متواضعا للغاية، إن لم نقل حقيرا، يعلوه ثقب لا يكف عن البكاء، بدموع تنهمر عليه من أعلى، ملحّة متواصلة، أقلقت روحه، وطردت نومه، فأمضى ليلته ساهرا يفكر: إن هذه القطرات المتوحشة تصبح أكثر فائدة لو اتخذت من الصحراء موضعا، هناك تزهر القمم وتخضر الوديان، أما فى هذا الكوخ فما من فائدة تُرجى وراءها غير الإزعاج، ولهذا السبب تغنّى شعراء الجاهلية بالمطر، وفى الصحراء عاشوا، وسموه غيثا، ودعوا الله أن يغمر أمكنة أحبّتهم، ولو كانوا فى مثل مكانه وحالته، ورأوا المطر يدق أجسامهم ويغرق فراشهم، لفترت حماستهم، ولكان لهم منه ومن جماله وفوائده موقف آخر.

وفاجأ الصباحُ الكاتب الغلبان بقشعريرة شديدة، ارتعش معها جسمه، واصطكت أسنانه، وزاده ألما وإحباطا أنه كان صباحاً متجهمًا عبوسا، تلفه الرياح الهوج، والعواصف المتربة، والضباب الكثيف، غابت شمسه، وأظلم نهاره، وانتظر أن يأتيه كوب الشاى الأخضر الساخن، الممزوج بالنعناع، تبعث رشفات منه الدفء فى بدنه وفى مشاعره ولكن انتظاره طال، وبدأ الأمل يتلاشى؛ لأن صاحب الكوخ لم يجد عنده شيئا يقدمه لضيوفه، فتخلّى عنهم مضطرا إلى رحمة الله.



وجـاء الإنقـاذ مع بغلتـه، وهى كل مـا يملكه الآن، وتقف بالبـاب مسرجة، يمسك بها ابنه، فى انتظار الشريف الموقر، تحمله إلى المكان الذى يريد، ولم يكن فى حاجة لأن يصرح للكاتب بأن عليه أنْ يظل واقفا، أو أن يمتطى قدميه إلى حيث يشاء، وبخاصة أن **الشريف عليّا** لم يكن فى حاجة إلى استئذان أحد، أو مجاملة شريكه فى الضيافة، ولو بكلمة حلوة، وإنما أسرع إلى البغلة يمتطيها، دون اعتبار لأحد، ولم يخف تأفّفه منها؛ لأنها بغلة غلبانة، متواضعة المظهر والسرج، هزيلة ضعيفة البنية.

امتلأ الكاتب غضبا، وأحس بالإهانة تسكن إهابه، أعماه الغيظ، وطاحت برزانته الرغبة فى الانتقام، والثأر لكرامته المهدرة، وتقدم إلى البغلة وأمسك بها، وواجه الفلاح:

– هل نحن مسلمون أم لا؟

– نعم، نحن مسلمون، وموحدون بالله، ونؤمن بمحمد رسوله ﷺ، وأنه آخر الأنبياء، ونؤمن بالبعث والقضاء والقدر واليوم الآخر.

– إذن كيف تعطى هذه الدابة، وهى كل ما تملك فى الدنيا، إلى هذا المنافق الكذاب، المتمادى فى غيه، يريد أن يقنعنا كذبا بأنه شريف، مع أنه لا يزيد شرفا عن شرف جدى، تذكر أيها الساذج العبيط، أو فى أحسن الحالات البرئ السليم النية، العقاب الذى توعّد به القرآن الذين يزهون بأنسابهم، أو يتعصبون لها، ويستعيضون بها عن العمل الصالح، ويدّعون لانفسهم الفضل لمجرد أنهم من هذه القبيلة أو تلك، بأن مأواهم جهنم وبئس المصير!.. إن هذا الرجل دجّال محتال، غير جدير بكرمك، ولكى لا تظن أننى مفتر، وأننى أتجنى عليه، سوف أخضع هذا المحتال الممثل، لبرهان حاسم.

ومد الكاتب يده، وهو يتكلم، إلى قطعة ورق، وفتح الدواة، وأخرج من جيبه قلماً، وراح يكتب فى خط واضح جميل كلمات متفرقات، وبين دهشة الجميع وضعها أمام عينى **الشريف**، وكان طوال الحوار بين الكاتب والفلاح صامتا، لا ينبس ببنت شفة كما لو كان قطعة من أثاث، أو كتلة من حجر.

بالطبع قرأ الشريف ما فى الورقة فى عجلة، ودون أية صعوبة، فقد كان قارئا وكاتبا:

هذا أفهمه.

هذا لا أفهمه.

ولم يزد شيئا، وفى الحق كان هذا هو كل ما خطَّته يَدُ الكاتب الفطن، ولأن الفلاح الطيب ريفى يعيش جهلا مقدسا؛ لم يفهم شيئاً؛ فقطب جبينه، وغرق فى حيرة عميقة، وهدَّد الكاتب بأن يتركه وحده واقفا، إذا لم يقم بحل هذه الرموز التى قرأها الشريف على؛ لأنها تعقيدات ورموز، ما كان يصح أن تُقدم لفلاح طيب، ليس ممن يحلون الألغاز أو يفهمون فيها.

وحاول **الشريف على** أن يفك الخصام بينهما، فركز اهتمامه للمرة الثانية فيما هو مكتوب على الورقة، ولكنه أيضا لم يستطع أن يقرأ غير:

هذا أفهمه.

هذا لا أفهمه.

وفى هذه المرة أوشك الفلاح أن يمسك بخناق **الشريف**، فقد ظن أن الجملة الأولى يتوجه بها إلى الكاتب، وأن الثانية يتوجه بها إليه، وأنه يخفى عنه بقية ما فى الورقة من كلمات، وهنا تدخل الكاتب المكار، يهدهد من غضب الفلاح فى نفاق، ويطلب من **الشريف** أن يدقق فى القراءة والفهم، لكى يفهما ما يقول، فعاد إلى الورقة من جديد، شاحب الوجه، نافد الصبر، وراح يقرأ بصوت مرتفع:

هذا أفهمه.

هذا لا أفهمه.

دون أن يزيد شيئا، أو يوضح غامضا، وهنا نفد صبر الفلاح الطيب، فأزاح **الشريف** عن ظهر البغلة، وأنزله أرضا، وسط الامتهان والسباب والاحتقار؛ لأنه مع نسبه الشريف الذى ادعاه، لم يستطع أن يقرأ الورقة، وأن يفك ألغازها.

ولم يدَع الكاتب الفرصة تفلت من بين يديه، وانطلق بها مسرعا، قبل أن يكتشف الاثنان الخدعة، بينما الفلاح يتابعه مزهوا ببغلته، التى حلت له مشكلة عويصة، ما كان لولاها يستطيع أن يجد لها حلا، وفى همس راح يعزى نفسه:

لهذا أحبك بغلتى!



الكسل اللذيذ

يحكى أن **السلطان المجيد، عبد القادر سعيد**، وجد نفسه ذات ليلة مغمومًا مكروبًا، تحاصره الهموم من كل جانب، دون أن يستطيع منها فكاكًا، فاستدعى وزيره وتحدث إليه:

اسمع أيها الوزير الذكى **جعفر**، إن الحزن ألقى بكاهلة على عقلى ومشاعرى، مثل غراب عملاق وخز مخالبه فى قلبى! ومن الضرورى أن تجتهد الآن، وأن تبذل كل ما فى وسعك لتزيل عنى هذا الضباب القاتم الذى يلف روحى، إذا كنت حريصًا على التمسك بالحياة، وإلاَّ فإنك سوف تُضرب بالعصا حتى تخرج روحك من مناخيرك!

وتحول الوزير إلى كومة من قلق، واستحالت حمرته صفرة شاحبة تغطى كل وجهه، وبدأ يلعن ساعة النحس التى دفعت به أمه إلى هذا العالم، سائلاً نفسه فى همس: ماذا يفعل، مهما عاونه ذكاؤه، وأمدته قريحته، وساعدته حيله، ليخرج من هذه الورطة، وقبل أن يشرق الفجر، كما اشترط مولانا السلطان؟ يا رب، ساعة فرج، تعينه على مواجهة الموقف!

ظل حائرًا للحظة ثم انتهى إلى رأى انبثق فى أعماقه فجأة:" «فلنجعله يخرج إلى الحديقة فوراً، فربما أشفق العلى القدير بحاله، وأنقذه من كربه، وقدم له حلاً ما!».

وفى الحال توجه إلى **السلطان**، يحاول أن يلمح إليه بما يريد :

- أيها **السلطان** العظيم، القوى القدير، كساك الله ثوبًا من المجد والعلم : ! اسمح لخادمك الحقير الذى يعرف جيداً وأكيداً أن الكثير والخطير من أعمال الدولة يحتاج إلى نبل فكرك، وحسن رأيك وأنه يصعب عليك ألاّ تتابعها من قرب - كما هى عادتك - أن يشير عليكم بفكرة يتمنى أن تضعها بموضع التجربة، وسوف تجد فيها الشفاء إن شاء الله تعالى : أتمنى عليك أن تتخلى للحظة عن شواغلك، وأن ترتمى فى حضن الكسل الإلهى أمّ كل الفنون، فهو الذى يغذى خيال الشاعر، ويلهم الموسيقى، ويسكب الفتور الآسر فى عيون الصبايا الفاتنات!

تأمّل بدقة عبيدك الذين يستريحون فى حدائق قصورك، وانظر كيف يعيشون سعدا «خليوّن من تبعات الحياة»، يمضون بين الخضرة والماء والهواء أفضل أوقاتهم!

- لو كنت أنت السلطان لأمضيت فيها كل وقتك يا **جعفر**؟ أليس كذلك؟

- ولا هذا إن شئت يكفينى، القليل يا سيدى الطيب المحبوب، وإنما سوف أكافئ الأكثر كسلاً بين خدمى وحاشيتى!

- الفكرة مسلية يا وزيرى، وربما إليها سوف يعود الفضل فى أن تظل رأسك مستقرة فى مكانها الطبيعى، هيّا إذن فلنبحث بينهم عن الأشد كسلا، الأثقل حركة، الأبطأ استجابة وسوف أهبه محفظتى بما فيها من دنانير!

وأخذ السطان ووزيره طريقهما نحو الحديقة، عبر ممر تحفه أشجار الحور والصفصاف، وتتناثر عليه شتى أنواع الزهور، تعبق بمختلف ألوان الأريج الفوّاحة، تتخللها نسائم الصّبا المنعشة، وبعد قليل من سيرهما رأيا جنديّا ممدّدا فوق الحشائش، ولّما رآه الوزير قال:

– تبارك الله خالق العالمين، لقد عثرنا يا سيدى على ما نريد، على **أحمد البغدادى** الذى يضرب بكسله المثل فى كل البلاد التى تحيط بنا، وارتفع صوت **جعفر** وهو يأمر الجندى:

– **أحمد**، تعال هنا، وانحنِ أمام سيدك!

أسرع الجندى فزعًا، وعندما اقترب منهما سمع السلطان يهمهم فى أذن وزيره:

– آه، أعرف من هو، إنه **البغدادى**، الأشد كسلاً بين جنودى، قل لى أيها الجندى: إلى أى مدى يبلغ كسلك؟

– إلى أبعد مما يقول الشاعر القديم أيها السلطان.

– وماذا قال الشاعر القديم؟

– قال:

دعــوتُ الله يجــمــعنى بليلى

وإنّ الله يفــعلُ مــا يشــاءُ

ويطرحُـهـا، ويطرحُنِى عليـهـا

ويُدخلُ مـا يَشَـا فـيـمـا يشـاءُ

ويـأتـى مَـن يـحـــــرُكُـنـى بِـلُـطْـفٍ

شـبـيــهِ الزِّقِّ تَـخْـضُـمُـه الرِّعـاء

ويأتى بعـــد ذا غـــيثٌ عـــمـــيمٌ

يـطـهِّـــــرُنـا وقـــــد زال الـعـنـاءُ

حتى أننى إذا جعت ومرّت علىّ أيام ثلاثة لم أذق فيها طعامًا، ثم قدمت لى الطواجن مليئة بالكسكوس الجميل لا أتحرك من مكانى لكى أسدّ رمقى، وأرضى نهم بطنى، وأكفيها شر الجوع فحسب.

وبينما **السلطان** يتهيأ لكى يعطى **البغدادى** صرة من المال، أخطأ هذا فى فهم نية سيده، فأراد أن يستسمحه بكسل آخر أشد من كسله، فبادر متضرعًا:

- ولكن بحقك لا تأمر بجلدى يا مولاى، ففى حب الراحة هذه يوجد بين خدمك أنفسهم من يزيد كسله على كسلى مئة مرة، فهناك إذا أردت على **الخطّاط**، إنه هناك، خلف تلك الأيكة، يمضى الجانب الأكبر من حياته، يراجع أعمالاً لم يبدأها أبداً، حياة شائنة معيبة، فى حق أى مسلم طيب كما يعرف الجميع.

وضحك العاهل، ومضى مبتعداً عن الجندى، واتجه نحو الأيكة التى أشار إليها الجندى، حيث يرقد **على الخطاط**، غارقًا فى السعادة، وما إن أحس بحركة السلطان ودعوته إليه، حتى فتح عينيه فى نعومة وتراخ شديدين، وعلى مهل، متثائبا، وانضم إلى الركب فى بطء، وأدى للسلطان واجبات التوقير والاحترام، وسأله السلطان بكل حلم ورفق:

- هل أنت أعظم الكسالى يا **على** كما تقول الشهرة التى استفاضت عنك؟ قل لى بصراحة، ولا تخش شيئًا، فإذا كان كسلك يتجاوز ما هو متوسط، أو حتى عادى، فأنت فى نظرى تستحق الرعاية وحتى يمكن أن تتلقى جائزة قيمة. وتشجع على وهو يسمع كلمات سيده، ولكنه يعرف أن السلطان صاحب أحوال، متقلب المزاج، يخلط الجد بالهزل، والحق بالباطل، ولا تعرف وأنت تتحدث معه على أى أرض نقف، فقال:

- أيها الملك السعيد، لك أن تتصورنى أنا الأكثر تفاهة بين خدمك، متمددًا فوق صخرة على شاطئ البحر، أرقب تتابع الأمواج الصاخبة، تتدافع حولى هادرة، تقترب منى، وتحاول أن تحيط بى، حتى توشك أن تبتلعنى، أتظن أن ذلك كله يمكن أن يحركنى من مكانى قيد أنملة؟ لا يا مولاى، لن أكون أنا، سوف أظل ثابتًا ساكنًا فى مكانى، حتى لو أسلمتنى أمواج البحر وصخبه وعنفه إلى موت محقق، إن الراحة أحبّ إلىَّ من الحياة!

واحتار السلطان فى تفسير ما يسمع، وطاف بذهنه أن ليس فى الدنيا أكسل من هذا، ذلك أن أى فرد حريص على الحياة، ويفر من الموت ما استطاع، ولكن هذا الرجل يرفض أن ينجو بنفسه من الغرق كسلا، إنه أحق بالمكافأة من غيره، مكافأة جديرة بمكانة السلطان، وبشرف الكسل الذى يمثله، وتدخل **جعفر**:

- لنواصل أيها السلطان العظيم نزهتنا الجميلة، ومن يدرى، فقد نقع على كسالى أشد غرابة وأندر مما رأينا، فبين العاملين فى قصورك كثيرون يعشقون الكسل ويعيشونه. ومضيا يتجولان بين الحدائق،

وقطعا عبر الطريق المرصع بأشجار الحور والصفصاف وأنواع الزهور الجميلة النادرة، ثم استوقفهما صوت يئن ويدعو: يا الله...

يا الله... ليتني كنت سلطانًا فلا تضطرني الظروف أن أحرك يدى، أو أتحرك من مكانى، فى يوم مقدس كهذا اليوم.

قال الوزير:

- مولاى، هذا **عمر الحلوانى**، وتقدم إليه الحاجب، وصاح به:

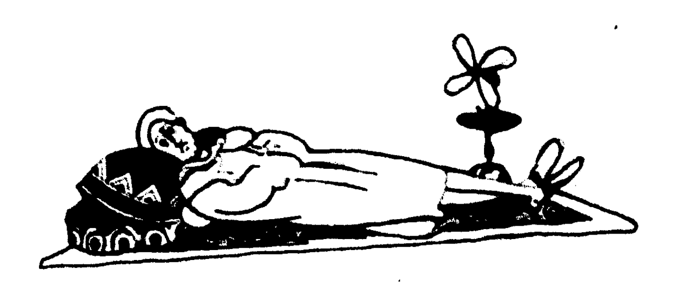
- عمر، تعال هنا.

وردّ **عمر**:

- تعال أنت يا سيدى.

وحينئذ تضايق السلطان، وعلت وجهه كدرة من هذا الكسلان الذى يدفعه كسله إلى عدم توقير السلطان أو الخوف، ورآه الأحق بالمكافأة فدفع إليه بصرة مليئة بالدنانير، ولكن **عمر** دون أن يتأثر إطلاقًا، أو تعلو وجهه لمسة بهجة، ولم يعر الأمر اهتمامًا، قال له:

- ضعها فى جيبى يا سيدى!



كان هذا الرد تأكيداً لاستحقاقه المكافأة، وأنه أجدر بها من بين كل الكسالى الذين مر بهم السلطان!

وأنهى القصاص حكايته قائلاً:

– والله أعلم بكل شيء، الماضى والحاضر، والمستقبل، وهو الذى قدر لعمر أن يجنى من وراء الكسل هذا الرزق الوفير.

تعالى اسمك، وجل جلالك، آمين.

كانوا ثلاثة

يحكى – والله العلى القدير أعلم – أن بغالاً اسمه **أحمد** كان يعيش فى زمن مضى فى مدينة تطوان، وكان الناس ينادونه في لحظات الصفو تدليلاً : **حميدة**، مستخدمين صيغة التصغير تهويناً لشأنه، واستهانة بأمره .

ولم يكن أحد يثق فى **حميدة** فهو أكسل خلق الله، وفوق ذلك كله كان مسرفًا مبذراً باع ما يملك بثمن بخس، وقضى على ثروته كلها، وترك بيته نظيفًا من أى شىء، فأصبح خاليًا مثل كف اليد .

فإذا أقبل الليل مضى إلى حقل قريب، يرفع قدمًا ويحط أخرى، وآوى إلى غرفة جميلة، فى سعة الحقل كله، سقفها السماء، ومصابيحها النجوم، وسريره الأرض الطيبة، خالية أوغنية بأعشابها . . وفوق هذا السرير الإلهى استسلم للنوم فى اطمئنان عميق، خلىّ البال من أى شىء؛ إذ ليس معه ما يفقده أو يخاف عليه، إلى أن تطلع الشمس، فتغطى أشعتها الجميلة قمم الجبال، وأعالى البيوت، مؤذنة ببدء يوم جديد .

وحين غمرته الشمس الوليدة من كل جانب بدأ يفتح عينين متثاقلتين ومنطفئتين، ثم انفتحتا فجأة بقوة، واتسعتا رعبًا، فقد اقترب منه، وهو فى حال بين اليقظة والنوم، شخصان عابران، يلفهما الحزن، وتعكس نظراتهما قلقًا، وحركاتهما حيرة، وتفرّساه جيداً فى فضول زائد، وأخيراً بادره أحدهما :

– من أنت؟

ومع أن **حميدة** لا يمكن أن يوصف بالبطولة، أو الشجاعة، أو الجرأة، فهو لا يملك من وسائلها قليلاً أو كثيراً، لكنه حاز المكر كله، بأكمله، حتى ليمكن أن يقال إنه الخبيث الأكثر استفادة على وجه الأرض من هذه الخصلة، فتجمد فى مكانه كما لو كان ينتظر يوم القيامة، وفى هدوء رد عليهما بسؤال آخر مثله:

– وأنتما .. من تكونان؟

– نحن عرّافان.

– لا يبدو على وجهيكما .. ما علينا، طيب، وأنا عرّاف أيضاً!

– وأين تذهب؟

– وأنتما – من أين قدمتما؟

– نحن ذاهبان إلى مدينة فاس.

وأحس السائلان بشيء من الخيبة، فتوقفا عن الحديث، وأخذوا يتبادلون النظر، كما لو كان كل واحد منهم يتفرس الآخر ويدرس قوته، ومدى ما يمكن أن يفيد منه.. وعندما استنتج القادمان أن الثالث ليس هيناً، إذا أحسنا توجيهه، ويمكن أن يكون مفيداً، ضماه إليهما، على أن يتقاسم ثلاثتهم الأرباح فيما بينهم، وأن يتعاونوا على الخير بدل أن يتنافسوا فيه، فيؤذى بعضهم بعضاً.

وذلك ما كان **حميدة** يريده ويرغب فيه.

اتفقوا، وتعاهدوا على الوفاء، ولعنة الله على من يخون، أو يعمل لحسابه من وراء ظهر زميليه، وشد كل واحد على يد الآخر تأكيداً للاتفاق واحتفاء به، ثم أخذوا طريقهم نحو فاس، أغنياء بالأحلام والآمال، وأن أكياسهم سوف تمتلئ بالأموال.

ولم يحدث لهم فى الطريق ما يستحق أن يروى.

عبروا فى رحلتهم مدنا وقرى، وفيها كلها حاولوا أن يشيروا إلى مهنتهم، وأن يظهروا براعتهم، وفى يوم مبارك وجدوا أنفهسم فى عاصمة الإمبراطورية المغربية، سادة لعبة يمكن أن تدر على صاحبها الذهب أو أن تذهب به إلى السجن، وراجعوا أنفسهم، ووازنوا بينهم وبين غيرهم، واعتقدوا أنهم أفضل الجميع، وأن بوسعهم أن يتقدموا إلى القصر الملكى لكى يقدموا خير ما عندهم.

وأمضوا أول الليل يسمعون الحكايا عن الأعطيات والطرف التى يهبها السلطان لمن يصدق ويحسن ويعرف، وقضوا بقيته يحلمون بما يتوقعون منها، وأخذوا يفكرون بعضهم بعضاً بالاتفاق الذى أمضوه، وتعاهدوا عليه عندما التقوا للمرة الأولى، وفى الصباح بدءوا مغامرتهم، وهم يستمطرون اللعنة على من يخون.

ووصلوا القصر الملكى، ودخل أولهم إلى مجلس السلطان، وبدون مقدمات بدأت المحاورة، إذا أصاب نال مكافأة سخية من الذهب الخالص، وإذا فشل فجزاؤه مائة جلدة كاملة، وكان عليه أن يجيب فى الحال عن هذا السؤال:

- كم نجمة تلمع فى السماء، وعلى كم كوب من الماء يحتوى البحر، وكم شعرة فى حصان السلطان المحبب إليه؟

ولأن التنفيذ يتم فوراً كان يقف على جانبى العرش اثنان من العبيد، الذى على اليمين يحمل صرر الذهب مكافأة للفائزين، والذى على الشمال يحمل عصا كبيرة، يحركها مزمجرًا، ويلوح بها متوعدًا.



ورغم الجهد المضنى الذى بذله العراف التعس لم يجب بشيء ولم يتوصل إلى جواب، ولا عرف كيف ينجو بنفسه، فاقتيد إلى غرفة مجاورة، وتلقى علقة ساخنة، ثم تركوه يستجمع قواه، ويلملم أعصابه، ونهض مغيظًا، ومضى محنقًا، كاتمًا غيظه، مصطنعًا البهجة والفوز، وحريصًا على تنفيذ الاتفاق، وأراد أن يشرك رفاقه فى هذا

الفوز العظيم، وعندما سألاه أجابهما ماكرًا بهما:

– مائة فقط، بلا زيادة ولا نقصان!

وهمهم الثانى:

– مائة!.. سبحان الله، كم هو سخى سلطاننا، وسوف يكون شيئًا رديئًا ألا أحصل أنا أيضًا على مثلها.

وأخذ طريقه إلى قاعة العرش يتقدمه أحد الخدم، ودار بخاطره وهو فى الطريق هاجس أن «المائة» التى أشار إليها رفيقه، جاءت مبهمة، وفيها تورية، ولكن زمن التراجع فات، فلم يكن بد من أن يتقدم.

وفى المجلس تلقى الأسئلة نفسها، وعجز عن الإجابة عنها، وتلقى مائة جلدة كاملة، وخرج بعدها كسيرًا يسب فى أعماقه مكر رفيقه وخبثه، وأقسم أن يتلقاها منه فى قادم الأيام مضاعفة، ومع ذلك كتم سره، فهناك **حميدة**، لم يواجه الموقف بعد، وليس عدلاً أن يمضى دون أن يأخذ حظه من الجزاء؛ ولهذا عندما سأله رفيقاه عما لقى، أجاب فى ابتسامة مغتصبة:

– أنا أيضًا أعطونى مائة!

* * *

ثم توجه إلى **حميدة**:

– والآن، اذهب أنت، وهناك من المكافآت ما يكفى الجميع!

وتردد **حميدة** قليلاً، متطلعًا إلى رفيقيه، فرأى على وجهيهما

سحابة، من غضب وسخرية، وفى عيونهم شيء من حرص وترقب، فهاب الموقف، وبدأ يدعو سيدى عبد القادر الجيلانى حامى « الغلابة » والمساكين، ثم تقدم واثقًا من ذكائه، الذى أنقذه من قبل فى ضائقات كثيرة، ووقف إلى جواره فى صعاب أكثر خطرًا مما يعرض له اليوم..

فى حضرة السلطان قدم المزيد من التوقير والإجلال والتحايا، وتلقى أسئلة السلطان، نفس الأسئلة التى قدمها إلى زميليه من قبل، سمعها هادئًا، وفى ثقة واطمئنان طلب ورقًا وأقلامًا، وبدأ يمارس جملة من حسابات معقدة غامضة لا تنتهى، ورأى أنها تعينه على الأقل فى أن يريح الوقت، ويدبر الأمر على مهل ويفكر دون عجلة فى خطة ينجو بها من هذا الفخ، وفجأة ترك الركن الذى كان قد انزوى فيه وحيدًا وقال:

- يا سلطان الزمان، سيدنا وتاج رءوسنا، لقد قمت بالحساب، ولكن حتى أكون متأكدًا مما انتهيت إليه، يحتاج الأمر أن تحضروا لى حصانكم المفضل هذا.

وأمر السلطان فأحضروا الحصان!

وطلب حميدة مقصًا، وما إن جاءوا به، حتى أسرع به، يحاول أن يقص ذيل الحصان، طويلاً وجميلاً وناعمًا كالحرير، وصاح به السلطان محذراً:

- ماذا تفعل، امسك.. أى جنون هذا؟

- ليس جنونًا يا سيدى، سوف تكون حساباتى أكثر انضباطًا إذا كان حصانك أبتر، إذ أن شعر الذيل هذا شوّش على، وأفسد تناسق معلوماتى، فإذا أردت الحصان كما هو، ولم تشأ أن تضحى بجمال ذيله، فعليك أن تعرف أيها السلطان أن مزاجك هذا أفسد على مهمتى.. وآذانى فى مهنتى، ويجب أن تعطينى مكافأتى كاملة أطال الله عمرك!

- لتكن لك المكافأة كاملة، ومعها خروف لقاء ظرفك ولطفك، ولكن الحصان يجب أن يبقى كما هو لا يمس..

* * *

كان رفيقاه فى الخارج يضربان أخماسًا فى أسداس، وتزداد سعادتهما عندما يتخيلانه يتلقى المئة التى تلقياها قبله، وعندما ظهر **حميدة**، أخذ يلوح بيده سعيداً، ويصيح:

- مائة وخروف!

ورد رفيقاه:

- تستطيع أن تبقى مع المائة؛ لأننا حصلنا على مثلها، ولكن الخروف

كما تعرف، وكما اتفقنا، لا بد أن يكون قسمة بيننا نحن الثلاثة.

لم يدعا الحميدة فرصة يفكر فيها، واشتبكوا بالأيدى، وتحول نزاعهم حول الخروف إلى مشاجرة، ثم اتفقوا على أن يذهبوا إلى القاضى ليحكم بينهم.

كان القاضى رجلاً تقيًا يخاف الله، ودعاه أن يعينه على حل هذه المشكلة، ولمّا غم عليه الأمر، وحار فيما يفعل، استخار الله فى حيلة، وأفاد المتخاصمين بأنه سوف يعطى الخروف لمن يستطيع خلال الليل أن يحلم بأشد المغامرات سعادة، وأمرهم بأن يعودوا إليه فى الصباح.

وعاد الجميع حيث ينزلون.

وبينما الاثنان يغطان فى النوم، يحاولان أن يحلما بأعظم المغامرات سعادة، كان **حميدة** يتسلل خفيفًا، ويذهب لكى يفترس الخروف، يذبحه، ويطبخه، ويسحقه بين فكيه القويين عظمًا ولحمًا، ويفعل ذلك.. فى هدوء عجيب حتى لا يوقظ رفيقيه النائمين اللذين وثقا فيه..

وبعد ذلك استلقى على فراشه مطمئنًا، ونام عميقًا..

فى الصباح الباكر تقدم الثلاثة إلى المحكمة، خلعوا أحذيتهم إجلالاً، وانحنوا أمام القاضى تقديراً، وقال أحد الثلاثة:

– يا فخر القضاة، وموضع اعتزاز كل المسلمين، أنا حلمت أنى أعبر

ميدان حرب على ظهر حصان، فى لحظة أوشك المسلمون فيها أن يستسلموا لأعدائهم، فسللت سيفى، وقاتلت ضد الكفار، وقطعت رءوس كثيرين منهم، وانتصر المؤمنون بفضل الله، فحمداً دائمًا لله العلى، رب الجلال والإكرام..

وتأثر القاضى أكيدا لرؤياه؛ فالجهاد من أكبر القربات إلى الله تعالى، وقد وعد الرسول ﷺ الشهداء الذين يسقطون قتلى مناضلين عن عقيدتهم بالجنة وما فيها من حور عين، وأنهم يبعثون يوم القيامة ودماؤهم لها لون الدم ورائحة العطر.. وهمهم فى دخيلة نفسه:

– سيكون الأمر للمحارب، حتى لو كان فى الحلم..

ومع هذا، فلنر ماذا كان الحال مع الآخرين..

وقص العراف الثانى حلمه:

– يا أبا الحكمة والعدل!.. لقد حلمت بأنى أبحر فى سفينة قرصنة، ووجدت نفسى أمام سفينة كبيرة، يملكها كافر عظيم، وأنها تضم عدداً من البحارة والمسافرين، والمغلوبين على أمرهم، فبدأت أبشر بينهم بالدين القويم، وجعلتهم يعترفون بأن الدين عند الله الإسلام، وأن ديننا هو الحق..

– وعلت القاضى إشعاعة رضا، وهنأ الرجل الحالم، فما من شىء يجعل المرء أقرب إلى الله مثل هداية الضالين.

ثم سأل **حميدة**:

– وأنت بماذا حلمت؟

– أنا سيدى، ياحامى العدل وكنف الأمان، هاجمنى كابوس حقيقى، وظهر لى شيطان – أعمى الله عينيه!.. وهددنى بقتلى، وزجى فى جهنم إذا لم آكل الخروف فى الحال، وحاولت جاهداً أن أقنعه بأن الأمر يتوقف على عدالة حكمكم، ولكنه لم يرد أن يفهم أسبابى أو يقتنع بوجهة نظرى، وبدأ يضربنى بقسوة، وبدأت يا سيدى حينئذ أطلب العون والمساعدة ممن حولى، ولكن.. من الذى سيلبى ندائى؟..

أول رفيقىّ كان كما سمعت يقاتل الكفار، والثانى يبحر عبر بحار بعيدة، مشغولاً بهداية الكافرين إلى الإسلام، فماذا يستطيع أن يصنع غلبان ضعيف مثلى يا سيدى القاضى؟

– مكرهًا أكلت الخروف، أكلته والله العظيم يا سيدى..

....

....

واقتربت الشمس من الغروب..

وبدأ السامعون واحداً إثر الآخر ينصرفون إلى المسجد القريب، فقد كان المؤذن من أعلى منارة المسجد يدعو الناس إلى الصلاة..

وانتعل الراوى خفه، وأخذ عصاه، وترك بقية الحكايات ليوم آخر، وضاع بين غمار السائرين.

دخان الفرن

- السلام عليكم يا **عم إدريس**.
- وعليكم السلام.
- السفينة جاهزة للإقلاع، وقد رفعت الهلب، وفى انتظار إشارة منك، إن رجال الميناء يؤكدون أن هناك سفنًا تمخر عباب المضيق، واستنتجوا من فخامة الأعلام التى ترفعها أنها لأناس مهمين، وهى تشق طريقها آمنة، لأن قراصنة سلا لن يتعرضوا لها، بعد أن عانوا فى الأيام الماضية القريبة هزيمة فادحة فى لقائهم مع الأسبان. إن تحرك السفينة، وإرسال الأشرعة، لا ينتظر غير أمر منك، والغيب فى علم الله، ومفاجآت البحر لا يمكن التنبؤ بها، قد يحتفظ لنا بلحظات صعبة، وقد نمضى آمنين فى رعاية الله، ونعود بغنائم وفيرة، ساعتها سوف نخصك بجارية بيضاء، جميلة شقراء، كاعب ناهد، ساحرة فاتنة، ترد إليك شبابك وتعود معها سعيداً راضياً.
- طيّب، اتجه شرقًا، وإذا حافظت على الدورة القمرية، فمن الأوفق أن تتجه نحو رأس حدرة، لتتجنب عاصفة بحرية عاتية تجلد شواطئنا. تحرك فى رعاية الله، ولتحرسك ملائكته.

من كان يقدم هذا النصح الذى اكتسى ثوب الجد والعلمية والمعرفة هو **إدريس**، ينتعل خُفًا متواضعًا، ويعمل فرانًا، ويناديه الجميع باحترام شديد: **عم إدريس**، وكان مؤمنًا تقيًا، صوامًا قوامًا، يؤدى الصلوات فى

أوقاتها، ويكثر من النوافل، وعدا ذلك ليس مطالبًا دينيًا بشيء، فهو لا يملك ما يؤدىّ عنه الزكاة وليس فى قدرته أن يحج إلى بيت الله الحرام، وكل ما يملكه من الدنيا فرن، يعيش من دخلها، هو والعاملون فيها، ويراه الناس غير سوى، ووراء ظاهره شيء لا يفهمون سره، فرغم أن فرنه أشهر فرن فى الحى وممتازة، ويمكن لو أعطاها شيئًا من الرعاية والعناية أن تدر عليه خيرًا كثيرًا، لم يدخلها أبدًا، واختار مقهى صغيرًا إلى جواره، يتمدد فى ركن منه على حصيرة بسيطة، مستسلمًا للأحلام اللذيذة والبعيدة، يتأمل مدخنة الفرن الممتدة فى السماء، وتلال الدخان الكثيف الذى يتدفق منها عبر الفضاء، ويبقى على هذه الحال منذ أن يستيقظ مع أول آذان للفجر، ويصليه جماعة فى المسجد المجاور، إلى أن يغلق المقهى أبوابه مع الهزيع الأخير من الليل.

وقد أدى ابتعاده عن فرنه، وإهماله لها، وغفلته عن إدارتها، أن بدأ

العمال أنفسهم يتكاسلون، ويهملون، ويبطئون، والزبائن يهربون واحداً وراء الآخر، وأخذت ثروته تقل وتتلاشى يومًا وراء يوم.

وخضع **عم إدريس** للقدر.

ورضى بقضاء الله!

وهذا الرجل الطيب الذى يحب الاسترخاء اللذيذ، ويؤثر أن ينام مطمئناً فى ركن منزو من المقهى الصغير، لم يغضب لأن كثيراً من خبز الزبائن كان يحترق بفعل الإهمال، ولا أثاره بطء العمال حين يعجنون الدقيق، ويدفعون بالأرغفة إلى بطن الفرن لتستوى، ولا حرّكت نخوته الإهانات والشتائم واللعنات التى يوجهها الزبائن إلى الفرن وصاحبها وكل العاملين فيها، ولا خاف على رزقه وهو يراهم يفارقون الفرن مبتعدين عنها إلى غيرها، ولا يعودون إليها ثانية، ولا غضب من مشهد الصبيان المكلفين بتوزيع الخبز على منازل الزبائن وقد تركوا مهمتهم وأصبحوا يلعبون لعبة «خذروف الوليد» فى الحارة، وألعاباً أخرى، ومع غيبة الرقابة والمتابعة، والحساب والعقاب، بدءوا يخلطون فى العمل كما يخلطون فى اللعب،فيقدمون الكعك لمن له خبز، والخبز لمن له كعك، ويعطون خبز زبون لآخر، وازدادت الفوضى، وضج الزبائن بالشكوى، ولا من مجيب ولا مغيث، وفقد كل الزبائن ثقتهم، وإلى هذا الحد، اختفى من أمام الفرن آخر زبون.

وخضع **عم إدريس** للقدر.

ورضى بقضاء الله!

وبدأ الذين حوله ويعرفونه يبحثون فى التاريخ، إعجابًا حينًا، وغيظًا حينا آخر، عن صبر يماثل هذا الصبر، واتكالاً على الله يشبه هذا التواكل، وحتى الفقهاء أنفسهم بدءوا يتعجبون من حاله هذه، ولا يعرفون لها مثيلاً ولا تفسيراً، وبخاصة عندما رأوا الفرن نفسها تحترق، وصاحبها لا يحرك ساكنًا كأن الأمر لا يعنيه، على حين هرول الجيران و المعارف، وأصحاب الخبز أنفهسم لإطفاء النيران، رحمة بمورد رزق هذا الرجل الطيب، وإنقاذًا للقليل من الخبز الذى كان لهم فيها!

وحتى فى هذه الكارثة خضع **عم إدريس** للقدر، ورضى بقضاء الله!

وبينما هو يرقد مطمئنًا فى المقهى كان الناس يتابعون الدخان المتصاعد فى الجو، يحاولون أن يقرءوا من خلاله أسراره، وأن يروا فيه روحه، واعتقدوا أنه يملك قوة روحية خارقة لا يرونها، ويلمسون آثارها ولا يعرفونها، وأنه يرى غير ما يرون، ويعرف أفضل مما يعرفون، أليس هو أفضل من يتنبأ بحالة الجو، وحركة الموج، ولا يخطئ فى ذلك أبداً، وأنه فى هذا الأمر أفضل من أى قبطان بحرى، أو عالم فلكى، يستشيره التجار حين يبحرون ببضائعهم، والحجاج حين يسافرون قاصدين البيت الحرام، وقد تعود البحارة، وأصحاب السفن، أن يترددوا على المقهى حيث يوجد، يطلبون رأيه، ويتلقون نصحه، وبخاصة عندما يصبح شكل البحر خادعًا، ويشكون فيما يكون عليه إذا أقلعت سفنهم، فقد يضمر لهم ما لا يحبون، ويفاجئهم بما يكرهون، وأن وراء الظاهر منه يخفى شراً مستطيراً.

وفى هذا الجانب فاضت شهرة **عم إدريس**، وحول معرفته وتنبؤاته صيغت قصص وحكايات، كلها تشيد بسعة علمه، ودقة تنبؤه، وصحة تأكيداته، وهكذا تنوسيت صفة الفران، وحلت مكانها صفة العالم بأمور البحار، وتجاوزت الأخبار حد الإشاعة، ومست حافة اليقين، وبلغت مسامع السلطان الذى قرر أن يستفيد من علم أحد رعاياه، وأصدر أمره بأن يكون مكان **عم إدريس** وعمله فى «الترسانة» البحرية فى سلا، حيث الأسطول الإمبراطورى، وأن يكون وحده المسئول عن حركة السفن السلطانية الحربية المسلحة العاملة فى الميناء، فلا تتحرك إلا بعد إذنه وموافقته.

وفى هذه المرة لم يترك **عم إدريس** أمره للقدر ولم يخضع لقضاء الله كما هى عادته، ورغم ما فى المنصب من تشريف كبير، وما كان يحلم يومًا بمثل هذا المنصب فى البحرية السلطانية، عارض القرار بقوة، وقاوم كل الإغراءات، ولم يطع أمر السلطان بسهولة، رغم ما فى ذلك من مخاطر، وراح يرقب فى هلع رأى الناس وهم يهزون رءوسهم سخرية منه وخجل من عناده الشديد، لأن أوامر السلطان، مهما كانت، يجب أن تطاع، وأن يخضع لها الجميع، وليس هناك من يحترم رأيه، أو يأخذ رفضه مأخذ الجد، ولن يخدمه فى شىء أن يحتج.

وجاء عساكر الباشا، وحملوه كرهاً إلى أكبر سفينة حربية راسية فى الميناء، نقلته بسرعة إلى مدينة سلا، حيث مقر الأسطول، ومركز القيادة البحرية، وعش القراصنة والقباطنة من قديم، وهناك أعلنوا

رسميًا بأن **عم إدريس** أصبح قائداً للأسطول السلطانى، وفى أكبر قطعة منه استقر مقامه قائداً، وتوافد الضباط والجنود يضعون أنفسهم تحت إمرته، وأنهم فى حالة استنفار واستعداد للانقضاض على أية سفينة للكفار.

وأعطاهم **عم إدريس** إذنًا بالخروج، وودعهم مباركًا، دون أن يكون لديه أية فكرة عن وجهتهم وماذا سوف يعملون.

وعلم الرأى العام بالأمر، وانتظر الانتصارات الساحقة فى عهد القائد الجديد.

ولم تمض غير أيام قليلة حتى بدأت الإشاعات تتسرب، خافتة فى البدء ثم بدأت تعلو شيئًا فشيئًا، إلى أن أصبحت حديثًا عاليًا وصاخبًا يصك الآذان، ويتداوله الناس فى كل مكان من السلطنة.

لقد تحرك الأسطول فى طقس غير موات للخروج، فقضت عليه الأعاصير والأنواء والأمواج، وأن الفرّان السابق والقائد العام يركع تحت قدمى السلطان يتلقى حسابًا عسيراً منه:

- كلب.. ابن كلبة، عليك أن تخلع زى القيادة، فلست جديراً به، وأن تخلع عمامة التكريم هذه، فرأسك لا يستحقها، والحرص على مصالح المسلمين يحتم علىّ أن أعاقبك فى الدنيا، والله سبحانه وتعالى يتولى عقابك فى الآخرة.

ورد **عم إدريس** ثابتًا مطمئنًا:

– سيدى، ودين النبى، أنا لست بحاراً، ولا فلكيًا، ولا أعرف شيئًا فى هذا، ولم أحلم به، ولا طلبت هذا المنصب، ولا سعيت إليه، بل رفضته، وقاومت قبوله؛ لأنى أعرف الناس بأمرى، وكل ما فى الأمر، أننى بمساعدة الله، وفرنى، وشىء من التجربة والفراسة، كنت أقوم ببعض التنبؤات الفلكية: إذا اتجه دخان الفرن نحو القصبة، يكون الإبحار شرقًا مناسبًا، ومضمونًا، وإذا اتجه نحو المسجد الجامع تكون الملاحة غربًا جيدة ومواتية، وهنا فى سلا ليس ثمة شىء من هذا، لا فرن ولا دخان، وأعترف لك يا سيدى، أنه مع آخر دخان تصاعد من فرنى التى احترقت وخربت تلاشى علمى أيضًا، وربما إلى الأبد!



مُخ الثعلَبة !

الأميرة أعجوبة الدنيا، الفجر المشرق فى قصر السلطان، أصبحت مريضة، شحب وجهها، وذوت حمرة خديها، وانطفأت لمعة عينيها، وخفت بريق نظراتها، وحار أبوها، السلطان الأشد قوة وسطوة، والأبعد نفوذاً وشهرة بين كل سلاطين اليمن، فى أمرها، واستشار فى أمرها كل الفقهاء والعلماء، ولكنهم عجزوا عن مداواتها، فقد كان مرضها شديداً، وبدا واضحاً أن المخلوقة الجميلة، أصبحت من الموت قاب قوسين أو أدنى، فعرض السلطان نصف ملكه لمن يشفى أعجوبة الدنيا، ينبوع الخير، ونبع البهجة، وتسامع الناس بالخبر، فتجمع أمام القصر العلماء والسحرة، وأصحاب العزائم، ومن يسخرون الجان والأرواح الخفية وبين هؤلاء لاما من بلاد التبت البعيدة، اتخذ شكلاً وهيئة وملابس ووقاراً صورة حكيم، يتكلم بقدر، ويكتفى بالإشارة واللمح، وقال: إن ما أصابها ضربة بسيطة من جنية صبية، بتبخيرها ثلاث أو أربع مرات بمخ ثعلبة مجفف سوف تعود كما كانت أعجوبة الدنيا، رقيقة جميلة، نضرة فاتنة، كيوم أن جاءت بها أمها إلى الدنيا.

فى البدء لم يكن الحديث عن الوافد الجديد طيباً، ولكن المريض وأهله يتمسكون بأهداب الأمل مهما كانت واهية، حتى لو كانوا يعرفون ذلك، وهكذا صدر الأمر بإحضار هذا اللاما إلى القصر السلطانى، وأن يوضع تحت تصرفه ما يشاء من الثعالب، واندفع

الحجاب والوزراء والعبيد والصيادون وعامة من فى القصر، وكثيرون من غمار الناس، وبعامة كل من أمكنه أن يتحرك، وأن يحمل شيئاً يطارد به الثعالب، اندفعوا إلى الحقول والوديان والهضاب، يحلمون بالفوز فى الحصول على مكافأة سخية من السلطان.

وبينما الجميع يجرون متسابقين للفوز بهذه المكافأة السخية كانت ثمة ثعلبة تطوف قريباً من القصر، سمعت المنادى يدعو الجميع إلى الذهاب إليه، فقالت لنفسها:

– الله يقدم لك الخير أيتها الثعيلبة الحبيبة، لقد أثار السلطان اليوم كل ثعالب جهاتنا، لكى يثريهم دون شك بالعطايا والهبات، أسرعى يا بنيتى فلا يوجد ملك فى الدنيا يحب أبداً أن ينتظر، وإذا سبقت فسوف يكون لك أفضل الجواهر، وتنالين أفضل الهبات، وخير العطايا، وهكذا وثبت، وعدت، واقتحمت القصر كإعصار، واصطدمت بالحرس الملكى، ولكنها استطاعت أن تبلغ حضرة الملك الذى حياها رافعاً يديه حتى ساوتا رأسه، ثم قبلهما وأراحهما على قلبه، وبعد ذلك قبل الأرض ثلاث مرات، وانتظر فى موقف المتواضع الخاضع، ما تقول الثعلبة، وفى قرارة نفسه أن يكون هذا الترحيب الحماسى خصماً من حسابها فى النهاية، وبدأ الكلام:

– سعداء بوصولك أيتها الثعلبة، ومجيئك فأل طيب، ومن كل قلبى فرحت لأن المنادى التقطك من قريب، وشكراً لك على أية حال، فقربك منا إقامة، وإقامتك بيننا قرب، وطيبتك بلا حدود، المهم أن تعرفى يا ضيفتنا العزيزة أن أعجوبة الدنيا تموت، وكما نصحنا

طبيب شهير حياتها رهينة بمخ ثعلبة!

أوشكت الثعلبة أن تفقد تماسكها، وترنح عقلها، وارتعبت كل قواها، واستعرضت فى خيالها الأطباق التى بلا عدد، صُنعت من أمخاخ أسلافها وأصدقائها، متبلة بألف طريقة وطريقة وما لبثت أن سيطرت على هجمة الرعب التى حاصرتها، وأخذت تتأمل بقوة وعمق كيف تخرج من هذا المأزق الخطير، وتنجو من المصيدة التى وقعت فيها، فليس عبثاً أن وصفوها بشدة الذكاء وسعة الحيلة، وفرط الخبث والمراوغة.



كان السلطان ينتظر الرد، ولكن الثعلبة فجأته بضحكة صاخبة أدهشته، وفى الوقت نفسه أذهلته، وكست وجهه عبوساً قاتماً، فأسرعت الثعلبة إلى حركة ذكية تكظم بها غيظه، وتهدهد من سخطه، فصاحت فى صوت بالغ الأسف يقطر ندماً:

- سيدى، ملك العالم الإسلامى كله، لقد منحك الله الحلم العظيم الذى تستطيع معه أن تعفو عن هذه الضحكة التى جاءت فى غير وقتها، فهى وإن بدت عبثاً سخيفاً ليست إلا دليلاً قوياً وشهادة صادقة على الحقيقة المؤكدة، وهى: أننى لست أنا، سيدى وملكى التى تستطيع أن تعالج حبيبتك أعجوبة الدنيا، ولك أن تصدق حين أعبر لك عما أشعر به، أى شرف لجنسى أكبر وأعظم من أداء هذه المهمة، وأن يدخل على نفسك البهجة، بتحقيق أمنيتك فى شفاء ابنتك، وأن تتم على يدنا هذه المعجزة، حتى لو كان ثمنها نخاع مخنا، ولكن فكر واحكم يا سيدى: هل كنت أمثل أمام شخصيتكم المهابة لو كان فىّ مخ؟ فمنذ متى كانت الثعالب تستطيع أن تخرج من لقاء الملوك سالمة حرة، دون أن تفقد شيئاً من مقوماتها، أو دون أن تخسر صداقتهم؟

ولم تنتظر تصفيق الحاضرين، على النقيض استغلت الدهشة التى لفت الجميع، والشلل الذى أحدثته المقابلة وقد بدأت خبباً، وانتكست عدوا، وانتهت مخاطرة، سوف أفقد فيها حياتى، وحين أفاق السلطان ومن حوله كانت الثعلبة قد تلاشت فى الأفق، فأخذ يعزى نفسه: صحيح، لو كان فيها مخ لما جاءت إلى هنا بنفسها!



عِندمَا تعشق بِنتُ السُّلطان

مثل سيف أصفهانى، تجرح فتنة عينيها من يركز نظره فيهما، ومن يحاول الإفلات من سحرهما سوف تدركه أهدابها الآسرة، سهاماً نافذة، تصيب أشد الناظرين جرأة وحيطة، وشجاعة وهيبة.

لقد اندست دُجنة الليل فى شعرها الفاحم، واستقرت أشعة القمر فوق جبينها المشرق، وبدت فى لألاء جمالها تغار منها الحوريات الفاتنات الهاربات من الجنة.

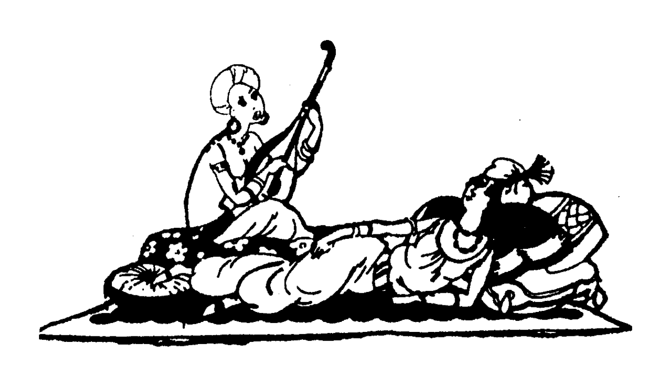
هكذا ظهرت الأميرة!

زهرة غصن فى روضة حسن، عسجدية اللون، حديثة عهد بالصون، بيضاء كاللجين، ملء القلب والعين، رشيقة القد، كاعبة النهد، فى صدغها لامان ما خط شكلهما قلم، ولا قص مثلهما جلم، ذات ذوائب تدع النفوس ذوائب، كأنها ليلٌ على نهار، أو بنفسج فى بهار، وجهها أبهى من الغنى، وأشهى من نَيْل المنى، يزينه حاجبان كأنهما قوس صُنعت من السبج، ورصّعت بعاج من البلج، على عينين ساحرتين، بالعقل ساخرتين، بهما تُصاب الكبود، وتُشقّ القلوب قبل الجلود، إلى فم كأنه ختام مسك على نظام سلك، سقاه الجمال برحيقه، فأنبت دره فى عقيقه، ولها جيد فى الحسن وحيد، تتمناه

كلُّ الغيد، وصدر كأنه مرمر فيه حُقّا عاج طوقتا بعنبر، ويدان خُلقتا للوشى، وقدمان أُهلتا للثم لا للمشى، فارعة الجسم، ريّ الروادف، هضيم الحشا، مهرة ضامرة لمّا تركب، ودرة غالية لم تمتهن بعد ولمّا تثقب.

عندما تبتسم تحرك دواعى الصبابة والهوى فى أشد القلوب قساوة، وعندما تطأ حصى الحديقة بأقدامها الناعمة الجميلة يتمنى من يراها أن لو كان بساطاً تدوسه بهما، من سنا وجهها تطل فرحة الدنيا، وفى لطف حديثها سحر هاروت وماروت، وفيضه يتدفق فى كل وقت، آناء الليل وأطراف النهار، وعبر أبهاء القصر الوسيعة، وقاعاته الفسيحة، تتردد أصداء صوتها الحلو، وهى تترنم بأغنيات رقيقة جميلة، على أنغام وشوشات المياه، تتدفق من النوافير، ومن أفواه تماثيل الحيوانات التى تحيط بها أو تجرى عبر القنوات، فتتحول إلى تراتيل ساجية، تضفى على المكان قدسية، وتملأ النفوس تقى وخشوعاً.

ولكن، آه من الدنيا..!



لم تعد الأميرة تبتسم كما كانت، ولا تضحك من أعماق روحها كما كانت تفعل، رغم أنها فى ميعة الصبا والشباب، وبدأ يلفها حزن مريع يطل من عينيها، ويهدى إليه هزال جسمها، وانطفاء نضرتها. وحار معها أكبر الأطباء وأشهرهم، الذين جاء بهم أبوها من كل أرجاء المعمورة، وانتهوا جميعاً إلى أنها جريحة القلب، شكها حب لا يرحم، دموى مثل الخزامى، لم تستطع له نسياناً ولا مقاومة ولا علاجاً، فآثرت الصمت المطبق، وسرق صمتها هذا من الملك هدوءه وسكونه واطمئنانه، وليخرجه الله من محنته هذه صلى له ملوك كثيرون متوجون.

- يا إلهى، رحمتك! ماذا نعمل لنخرج «فرحة الدنيا» من هزالها، ولتعود لى مع صحتها وبهجتها، قبلة النوم الحلوة، أتلقاها من فمها وعينيها الجميلتين؟!

قال الأطباء: نداويها بما كان به داؤها، نقتل الحب بالحب، وبعض السم ترياق لبعض، وقد يشفى العضال من العضال، والتقى الحكماء والمستشارون ليختاروا لها زوجاً من بين أكثر الأمراء والنبلاء غنى ووسامة، وأشجع الفرسان عند اللقاء صموداً وقتالاً وأكثر الفقهاء علماً، وأوسعهم شهرة.

ولكن صاحبة الوجه المتعب، والشحوب الفاضح، والهم الواضح، لم تفارق حالها هذا ولا لحظة واحدة، وإنما ازدادت صمتاً، وأهزلها الكتمان أكثر، وكلما تمكنت منها المتاعب والأمراض غرق الأب فى الإحباط والحزن والكتمان.

وذات يوم استجابت الفتاة الحلوة للرجاوات تحاصرها من كل جانب، وباحت بسرّها، سر جعل السلطان يعتقد أنها مجنونة، وعندما تحقق من ذلك أوشك هو نفسه على الجنون: إن ابنته تلك الحورية التى هبطت من السماء واتخذت من الأرض مقاماً، تحب حتى العبادة عبداً أسود، الأشد سواداً بين كل عبيد السلطان، والأغلظ شفاها والأفطس أنفا، والأشد تعاسة بين الجميع، ولم يصبه تعليم ولا تدريب، ولا عرف العتق إليه طريقاً، ولا تعلق أمله بالحرية يوماً، وكلما فكر السلطان فى النتائج ازداد بؤساً وتعاسة، ماذا يمكن أن يثمر هذا الزواج؟ العار لأسرته، والاستهزاء بعرشه، أبناء وحفدة سوداً، والله وحده يعلم متى تتوقف هذه الصبغة، وتنحسر عن وجوه أسلافه.

يخزى الله عين الشيطان مصدر كل المصائب والشرور!

* * *

لم يستطع الأب أن يصم أذنيه وقلبه عن رغبات ابنته، وهو يرى جسمها يهترئ، وورد خديها يذبل، وبريق عينيها ينطفئ والبياض يجتاح شعرها، ولا بد من وقف كل هذا البلاء، وأن يعالجها بكل ما هو مستطاع إنسانياً وفى مكنة الأطباء للحيلولة دون أن تتزوج ابنته البيضاء من عبد أسود.

فكر عميقا وتأمل المشكلة ملياً، وفى هدوء قرر أن يرسل المنادين عبر كل شوارع المدينة وأطرافها يدعون إلى القصر كل الأطباء والفقهاء والقضاة والمنجمين والتجار، وكل من يعرف شخصاً أو روحاً تستطيع

أن تجعل من الوجه الأسود أبيض، وسوف ينال من ينجز هذا الأمر مكافأة مجزية: دنانير ذهبية خالصة، وجوارى بيضا، وخيلا دريرة.

وامتلأ القصر بكل من توهم فى نفسه أنه قادر على صنع المعجزة، وأخذوا يجربون فى وجه العبد ألف صبغة وصبغة، وفى كل مرة يخرج العبد متهالك القوى، مطحون العظام، وأشد سواداً مما كان!

وفقد السلطان كل أمل فى أن يجعل من وجه العبد الأسود وجهاً أبيض، وجلد بقسوة كل الذين غشوه، ولكن.. ما بين غمضة عين وانتباهتها يغير الله من حال إلى حال، ومن الليل البهيم ينبثق الفجر، ومن الإحباط القاتم يولد الأمل الباسم، وفى اللحظة التى فقد فيها السلطان كل أمل فى تغيير لون عبده على يد العلماء الكيمائيين والروحانيين والسحرة، والقادرين على تسخير الجان، وتوقف الجميع عن التصدى لتنفيذ هذه الرغبة، واختفوا من ساحة القصر السلطانى خائفين، وتسللوا واحداً إثر واحد، وفى هذه اللحظة وصلت إلى السلطان رسالة من سجين محكوم عليه بالمؤبد فى إحدى المطامير[1]، تكفيراً عن جريمة ارتكبها، وأنه يرغب فى التكفير عنها بطريقة أخرى غير السجن، ويؤكد على قدرته وضع رغبة السلطان موضع التنفيذ، ويقسم بحق خالق الكون، ومن رفع السماوات بغير عمد ترونها، وأرسى فى الأرض رواسى، أنه يملك سر تبييض الوجوه السوداء، وإذا أنعم عليه الملك القوى بالحرية، فسوف يجعل له من القطران حليباً،

(١) المطمورة، لون من السجون المغربية القاسية، تكون عادة تحت الأرض.

وجئ بالسجين إلى القصر، واستقبل بحفاوة بالغة بوصفه عالماً كبيراً وأقسم بكل العهود، وحلف بأغلظ الأيمان أنه سوف يحقق للسلطان غايته، واستجابوا لكل مطالبه، ولكثرتها أعدوا له غرفة واسعة، مزودة بكمية طيبة من الأقلام والطباشير والبراجل والمساطر، وزجاجة حبر ملأى، وكومة من الورق، وفى هذه الغرفة حجز نفسه مع العبد، ولكم تمنى السلطان لو أنه شهد التجربة بنفسه، فقد أخذ الفضول ينهش رأسه، ولكنه وجد نفسه مضطراً أن يقنع بكوة صغيرة، يمكنه أن يتابع منها الساحر العظيم، وقد مدّد العبد الأسود على الأرض، وأخذ يقيسه بكل ألوان المقاييس التى فى حوزته، وأرغمه أن يحنى ذراعيه وساقيه بقوة مرات كثيرة، وأن يكتب آلاف الأرقام والمعادلات وأن يرسم دوائر وأشكالاً غريبة، وأن يتفوه بعبارات كثيرة غامضة، دون أن يكون لديه شك فى أن هناك من يتجسس عليه، وفجأة غمرته موجة ابتهاج دون أى اهتمام أو إحساس بالحالة التى عليها العبد المنهك المطحون، ووسط الجلبة والضوضاء فتح الباب وصاح:

- لقد وجدت الحل!

ورنت كلماته فى الجمع مثل بوق نصر وجرى إلى الملك وحاشيته الذين أوشكوا أن يفقدوا عقولهم من المفاجأة والفرح، وبدا الطبيب كما لو كان مجرباً واثقاً من نفسه، ودعا بنعش ليوضع فيه العبد، فقد كان من المستحيل أن يتحرك على قدميه ضعفاً وهزالاً وتهالكاً، وعندما حملوه إلى السلطان، فرك عينيه وهو يتأمله، ويقول:

– يحفظنا الله منك ومن أمثالك، فقد جعلته إلى
جانب سواده قذراً ضعيفاً متهالكاً، حاله
تدعو إلى البكاء.

– ليس مهماً يا سيدى، يا
فخر كل المسلمين، لم يبق
من الأمـــر إلا الســـهل
اليسير، ساعدنى على أن
نقلب تكوينه من النقيض
إلى النقيض، فنجعل وجهه
مكان ظهره، وظهره مكان وجهه، وحينئذ
سوف يكون مشهده رائعاً، ونقدمه هدية فريدة لهذا الملاك الطاهر،
الذى هو ابنتك الجميلة الحبيبة!

وسقطت على السلطان بسمة، ورأسه مدفون بين المخدات، عوجت
تاجه، وشلت كل قدراته على التفكير!

* * *

تلك نهاية الحكاية.

والحمد لله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذى لم يلد ولم يولد،
ولم يكن له كفواً أحد!.

حَاجٌ .. وحَاج

الحمد لله، مالك الملك، له الحمد والشكر، رب السموات والأرض، مانح الخير، أكرم من كل كريم على الأرض، وهو على كل شىء قدير، لا يشك فى هذا إلا الجاحدون، إذا رغب فى إكرام الفقير البائس المعوز انتزعه من القاع، ورفعه إلى أعلى عليين، وأجرى الخير على يديه فإذا هو أغنى من سليمان أو قارون، وإذا أراد تحقير الكافر هبط به إلى الحضيض، وجعله يتمرغ فى الشقاء، ويعلك المر والحنظل، ويملك أن يعيد الغنى فقيراً، والمالك معوزاً، فى غمضة عين وانتباهتها يغير الله من حال إلى حال.

اسمعوا أيها المؤمنون هذه الحكاية العجيبة حكاية سوف تخجل كل أولئك الذين ينكرون قدرة الله، وهم ملعونون فى الدنيا، ومآلهم فى الآخرة جهنم وبئس المصير.

فى زمن بعيد جداً كانت طنجة مدينة غنية، نافقة التجارة، واسعة الثراء، تجرى الأموال بين يدى أهلها بغير حساب، وإن تعاورتهم الأحداث فيرتفعون وينخفضون، وكان يعيش فيها تاجر يدعى **سيدى عبد القادر الفرطاوى**، شديد الغنى والبخل، لا يذكر اسمه إلا أدمى العين وأوجع القلب، جشعُه البشع، وشحُّه القاتل، وكلما ازداد ثراء اشتد طمعاً وتكالباً على الدنيا، وكان يجاوره ويصادقه **سى مصطفى**، وهو بائع فقير، يملك حانوتاً صغيراً، أهمته حال صاحبه، فشغل نفسه بتهدئة تلك الروح القلقة النهمة إلى المال بلا حدود، ولكنه لم يكن

يملك له غير النصيحة، يقدمها له في جمل ناعمة ملساء مقنعة، تحثه على الصبر، وأن يخضع للقدر، وأن يرضى بما أعطاه الله، ولكن **سيدى عبد القادر** لم يكن يعيرها اهتماماً إلاّ لحظة سماعها، ثم ينساها، وبعدها يشغل وقته بالتوسل إلى الله القوى الغنى القادر على كل شيء، أن يمن عليه بدفقة من ذهب تتضاعف معها ثروته.

ذات مساء دخل **سى مصطفى** دكان **الفرطاوى** على غفلة فسمعه يدعو:

يا الله... يا الله... يا الله، أنا حقير عاصٍ، أعترف بهذا، ولكن.. ألا يمكن أن تجعلنى أربح فجأة ألف دينار من الذهب النضار؟ إننى أعدك منذ هذه اللحظة، إذا جاء هذا الربح، أن أنذر ثلاث مئة دينار للمسجد، وثلاث مئة دينار للحجاج إلى بيت الله الحرام، وثلاث مئة دينار للفقراء والمساكين وعابرى السبيل الذين يطوفون بالسوق يسألون الناس إلحافاً، وثلاث مئة دينار للمتسولين فى الشوارع، وثلاث مئة...

وهنا قاطعه **سى مصطفى** قائلاً:

- سيدى، لقد جف لسانك، وأنت تتضرع إلى الله، وترجوه فضلاً ألف قطعة ذهبية، ثم تنذر بأن تعطى فى سبيل الله هبات ونذوراً تبلغ ألفا وخمس مئة دينار؟ احسبها، وسترى كيف أنك خرجت من العملية خاسراً، خرجت من المولد بلاحمص.

استمع إليه **القرطاوى** هادئاً، انكمش بدنه، وانخفض صوته، وغض بصره، واستجمع قواه، ورد:

- المهم أن أحصل أنا على الألف دينار، وسوف ترى كيف يتصرف الرجال.

غير أن هذا الشر الذى تجسد فى إنسان لا يمكن أن يبقى بغير عقاب، وجاءه سريعاً وبلغ من القسوة حداً مدمراً أصاب قلب ما يحبه **سيدى عبد القادر**، وفيه تجمعت كل أشواقه: ثروته! لقد رآها تزداد كل يوم نقصاً بقدر ما تزداد سيئاته عدداً، ورأى كوكبه الذى يتحرك فيه يخفت وهجه، ويزداد مع الأيام إظلاماً!

لقد هبط من تاجر جملة إلى بائع، ومن بائع صاحب حانوت إلى بائع متجول، ومن بائع متجول أصبح عاملاً. الحمد لله على كل حال، إنه قادر على أن يعاقب الشحيح البخيل، كما هو قادر على أن يثيب المؤمن التقى.

وذات يوم دق حامل الشواب باب **سى مصطفى**، التقى الورع، وانفتح له الباب فدخل، وترك الكثير مما يستحقه هذا الرجل الطيب:

حظاً وبركة، وإقبالاً على تجارته، فكثر زبائنه، وراجت بضاعته، وتضاعفت أرباحه، والكسب يصنع كسباً والمال يدر مالاً، وأنت تصنع الألف الأولى، وهى تتحرك بنفسها وتصنع المليون، وهكذا، ولم ينس الرجل أبداً، وهو فى أزهى انتصاراته تاجراً، أن يخرج الزكاة، إنها حق معلوم للسائل والمحروم، والركن الرابع الذى ينهض عليه الإسلام.

إنه يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيم الصلاة، وها هو يؤتى الزكاة، فماذا بقى عليه ليحقق أركان الإسلام كاملة؟ بقى الحج لمن استطاع إليه سبيلاً، وهو مستطيع دون شك، فقد جمع ثروة عظيمة، وعافيته كاملة، والطريق آمن، فوجب عليه أن يؤدى حق الله، وهكذا قرر **سى مصطفى** أن يذهب إلى الأراضى المقدسة، يؤدى فريضة الحج، وينعم ويتمتع بزيارة قبر الرسول عليه الصلاة والسلام، وصحب معه عدداً من الفقراء يحجون على نفقته، ولم لا ما دام قادراً؟! إن زيادة الخير خير، والتوسع فى الصدقة يكسر حدة الشر عند الآخرين، ويمنع الحسد، وكان من بين هؤلاء الفقراء الذين صحبهم **سى مصطفى** فى حجه **سيدى عبد القادر**، الذى انهارت تجارته، وتلاشت ثروته، وأصبح من الفقراء المعدمين، الذين تجوز عليهم الصدقة، ومبارك من يرحم عزيز قومٍ ذل.

وصلت القافلة إلى غايتها، وبقى الحجاج أسبوعين فى الأراضى المقدسة، ثم أخذوا طريقهم بعدها عائدين إلى بلادهم، وبعد رحلة طالت وجدت القافلة نفسها على شواطئ نهر النيل، ومأخوذة بجمال الطبيعة، وعظمة نهر النيل، وكثرة المساجد وروعتها، وامتلائها بالمصلين، قرر **سى مصطفى**، وأصبح ينادى بالحاج أن يبقى فى مصر المحروسة أياماً، يستريح خلالها من عناء السفر، ويتعرف إلى معالم المدينة، يتردد على مساجدها العظيمة، ويزور أولياءها وأضرحة أهل البيت فيها، ويختلف إلى متاجرها العامرة بكل جميل من الأقطان الفاخرة، والحرائر النادرة، والعباءات الجميلة، مما هو فى حاجة إليه لنفسه، أو ليهديه إلى أصدقائه حين يعود إلى وطنه.. إلى طنجة الحبيبة.

ولم يغفل عن ترقب أخبار السفن التى ترد إلى الإسكندرية، أو تبحر منها إلى طنجة، وهى تصل إلى الخان كل يوم، مع القادمين والنازلين والراحلين، وهكذا عرف من أحدهم أن سفينة كبيرة مريحة يقودها الريّس منصور سوف تصل الإسكندرية ثم تغادرها بعد أسبوع، تفرغ خلاله شحنتها وركابها، وتستقبل المسافرين، وتشحن حمولتها من البضائع، وما إن سمع سيدى الحاج باسم الريّس منصور حتى هش وبش، وامتلأ ثقة وارتياحاً؛ لأنه يعرفه جيداً؛ فهو بحار ممتاز، وسفينته كبيرة ومريحة، ولا بد إذن أن ينتهز هذه الفرصة السعيدة، وأن يسرع إلى الإسكندرية ليكون من ركّاب سفينته.

وحمّل قافلة من الجمال خدمه وحقائبه، وأرسلهم إلى المكان الذى

سوف تقلع منه السفينة، وانتقى لنفسه جملاً عَوْدا، وأخبرهم أنه سوف يلحق بهم فى الطريق، بعد أن يقضى بعض مصالحه وحاجياته الطارئة، ويصلى الجمعة فى الحسين.

هكذا كان يخطط **سيدى الحاج مصطفى**.

فى الوقت نفسه كان **الفرطاوى** يقرر شيئاً آخر، استلهمه من خسّته التى لم ينسها، ومن حقاراته التى لا تنفد: أن يتسلل من بين العائلات حين تتحرك القافلة، وأن يتخفّى إلى أن يبسط الظلام جناحه ويمد رواقه، فلما تحركوا أخذ يراقب **سيدى الحاج** من بعيد، وحين جن الليل رآه يخرج إلى الحديقة، باحثاً عن تسلية يمضى معها وقته وقد أصبح وحيداً، ووجدها عند شابين يعزفان الموسيقا، أحدهما على العود والآخر على الناى. وما كاد يأخذ مكانه حتى تسلل **الفرطاوى** إلى حيث الجمل القوى، الذى خص به **الحاج مصطفى** نفسه، فامتطاه، وأطلق له العنان، إلى أقصى الجانب الآخر من المدينة، حيث دفع به وسط المزارع يخفيه عن أنظار صاحبه.

شىء ما بدأ يوخز ضمير **سيدى عبد القادر**، وبدأت تراوغه فكرة أن مصطفى وسلفه معروفون بالسحر، ولهم فى ذلك شهرة، وتؤثر عنهم أفعال عجيبة، فامتلأ خوفاً ورعباً، وراودته فكرة أن يعود بالجمل إلى مكانه، ولكنه خشى الفضيحة، ولكى يسترد ثقته بنفسه، ويقوى من عزيمته، بدأ يشتم **الحاج مصطفى**، وينسب له من السيئات ما فعل ومالم يفعل:

- أحلف بذقنى، أن وجهك الأسود لن يرى طنجة الجميلة مرة

أخرى، أتظن أنك تستطيع أن تلحق بالقافلة، ما دام معك هذا الجمل السريع، تجلس فوقه مستريحاً، وتمضى به طائراً، أبداً لن يكون لك هذا، لقد ضاع منك ولن تعثر عليه، ولن تجد وسيلة نقل خاصة بك فقط ربما تستطيع أن تبلغ الميناء ماشياً حيث المركب تحمل بضائعها وركابها، ولكن حتى هذا لن يكون لك، فحين تصل، تكون المركب أقلعت، وأصبحت تتهادى فوق سطح البحر.

حين افتقد الحاج مصطفى جمله امتلأ كرباً وهماً، فقد وجد نفسه بلا راحلة يمتطيها، وأمضى الليل ساهداً يفكر: ماذا يصنع، ومع الفجر، بعد الصلاة، أخذ يبحث عن مناد، يطوف بالحيّ، ويعلن بأعلى صوته:

«أيها المؤمنون الطيبون، من رأى منكم جملاً اختفى من صاحبه الليلة الماضية؟ من يجده، سوف يدفع له صاحب الجمل مكافأة طيبة، ويدعو له الله بالخير والستر وسعة الرزق، ومن يجده ولا يرده لصاحبه فى الحال، فإن **الحاج مصطفى** سوف يكون له منه موقف شديد القسوة، ولن يتردد فى أن يكرر معه ما صنعه فى ظرف مشابه جده الأعلى، الولى التقى، الذى يرقد الآن فى سلام إلى جوار الله».

سمع **سيدى عبد القادر الفرطاوى** النداء، ومن جديد تغشته سحابة من الفزع، وراح يسترجع تاريخ عائلة الحاج مصطفى فى السحر والكرامات وتسخير الجان، وأيقن أنه هالك لا محالة، وراودته فكرة أن يعيد الجمل إلى مكانه، دون أن يراه أحد، كما فعل حين أخذه، وقبل

أن ينفذ ما استقر عليه رأيه، قرر أن يذهب إلى الحاج مصطفى، وأن يكشف عن فكره، وما سوف يفعله:

– أستحلفك بالله، وحق الرسول عليه الصلاة والسلام الذى أنت عائد من زيارته، ماذا فعل جدك الطيب، الذى يستريح الآن آمناً مطمئنا فى قبره عندما سرقوا جمله؟

ورد الحاج مصطفى:

– تقول جدى؟

– نعم.

– فى سرك، رجع إلى طنجة ماشياً على قدميه!

المحمّدون الثلاثة

كان لرجل ثلاثة أولاد، سمى كل واحد منهم محمداً، ولما حضرته الوفاة شك فى أن أحدهم ابنه من صلبه، وحينئذ استدعاهم، وقال لهم:



- محمد يرث، ومحمد يرث، ومحمد لا يرث!

ثم لفظ أنفاسه.

وجهز الأبناء الثلاثة والدهم، وشيعوه إلى مثواه الأخير، وجلسوا يستقبلون الناس مواسين ومعزين، ومرت الأيام، وحانت اللحظة التى أراد كل واحد منهم أن يعرف نصيبه مما خلّف والده، فاجتمعوا، وتناقشوا، واختلفوا؛ لأن أحدهم طبقاً لتصريح والدهم ليس له

الحق فى الميراث، فذهبوا إلى قاضى القرية، وعرضوا عليه ما قال والدهم وهو فى آخر لحظاته على الدنيا، وأول خطاه إلى الآخرة، وتأمل القاضى الأمر طويلاً، وفكر ملياً، وحار فيه، ولم يهتد إلى حل، فقال لهم:

– **القاضى حجى** وحده يستطيع أن يفصل فى مثل هذه القضية المعضلة.

سلَّم الأخوة أمرهم لله، وقرروا الرحيل إلى حيث يوجد **القاضى حجى**، وفى الطريق إليه استراحوا قليلاً بعد رحلة مضنية، وهم فى هجعتهم هذه رأوا خطى جمل فى الطريق، فنظر أحد الثلاثة إليه وقال:

– الجمل الذى مر من هنا أبتر! .

ونظر الثانى بدوره وقال:

– وهو أعور!

وتأمل الثالث قليلاً ثم قال:

– وكانت حمولته نصفها حلو، ونصفها حامض!

وحين استردوا قواهم عاودوا الرحلة من جديد، وفى الطريق التقى بهم رجل يبحث عن جمله الضائع، فسألهم عما إذا كانوا قد رأوا فى طريقهم جملاً شارداً.

فنظر إليه أحد الأخوة وقال:

– جملك مقطوع الذيل؟

فرد الرجل مؤكداً: بلى!

وقال الثانى:

- وهو أعور!

فأجاب الرجل: نعم.

وسـأل الأخ الثـالث بدوره:

- ونصف حمولته حلو، ونصفها الآخر حامض؟

فتهلل الرجل بشراً، وقال: هو كذلك أكيداً!

حينئذ رد عليه الثلاثة فى صوت واحد: صَدِّقنا يا شيخ، نحن لم نر جملك، ولا وقعت عيوننا عليه.

- كيف؟ لقد رأيتموه، لا شك فى هذا، لقد أعطيتمونى أوصافه دقيقة، أين رأيتموه؟ أعينونى بارك الله فيكم!

ومن جديد أكدوا له: لم نر جملك، ولا مر فى طريقنا.

ولم يفارقهم الرجل، ولا أخلى سبيلهم، وأصرَّ على أن يدلُّوه على جمله، وأصروا على الإنكار.

إزاء إصراره اقترحوا عليه أن يمضى معهم إلى **القاضى حجى**، فهم ذاهبون إليه ليعرضوا عليه بعض مشاكلهم، ولتكن مشكلته معهم قضية أخرى.

وقف الأربعة أمام القاضى: الأخوة الثلاثة، وصاحب الجمل الشارد.

قال الرجل:

– هؤلاء الأخوة الثلاثة استولوا على جملى، وإنهم يعرفون مكانه وأخفوه عنى.

قال القاضى:

– رُدُّوا إليه جمله!

رد الثلاثة:

– الله يحكم بيننا وبينه، إننا لم نلق جمله، ولم نخف عنه شيئاً!

وأصر صاحب الجمل على طلبه:

لقد وصفوه بدقة؛ شكله، وحمولته، ولا يستطيع ذلك إلا من رآه رأى العين، قالوا: إنه أبتر، وهو كذلك فعلاً، وإنه أعور، ولم يتجاوزوا الصواب، وزادو فوصفوا حمولته، وأن نصفها حلو، والنصف الآخر حامض، وهى كذلك حقاً.. فكيف أصدق يا سيدى القاضى أنهم لم يروه.

وفكر القاضى ملياً، ثم سأل الأخوة الثلاثة:

– كيف عرفتم أنه أبتر؟

فرد أحدهم:

– عندما يبعر الجمل، فإن ذيله يفرق البعر شتى، فلا يسقط مجتمعاً، ولا فى مكان واحد، ونلتقى بعرة هنا بعرة وهناك، أما حين يكون أبتر فإن بعره يسقط على الأرض جملة، ممسكاً بعضه برقاب بعض،

فلما رأيت بعر الجمل على هذا النحو أدركت فى الحال أنه أبتر، ولا ذيل له.

وكيف عرفتم أنه أعور؟

فأجاب الثانى:

– استرعى انتباهى أن الجمل حين يرعى الحشائش لا يمضى معها فى خط مستقيم، وإنما ينحرف فيأخذ شكلاً ملتوياً، لأنه يلتهم ما تقع عليه عينه السليمة، ويدور معها، على حين أن الحشائش التى على مرمى عينه العوراء، التى لا يبصر بها، ظلت قائمة لم تمس.

وتوجه القاضى إلى الثالث وسأله:

– وأنت، كيف عرفت أن جانباً من حمولته حلو، وأن الجانب الآخر حامض؟

فردَّ قائلاً:

– لأن حمولة الجمل من السوائل لم تكن أوانيها محكمة، فأخذت تنقط فى الطريق، ورأيت الذباب يحوم على جانب منها دون أن يقع عليها، على حين أخذ يتدافع على الجانب الآخر ويتزاحم، يسقط عليه ولا يدعه، فعرفت أن الأول حامض يهرب منه الذباب حين يشم رائحته، وأن الثانى حلو يقبل عليه، وأن حمولة الجمل كانت من هذا وذاك.

وسأل القاضى صاحب الجمل:

- وأنت كيف جملك؟

- هو كما وصفوه: أبتر، أعور، نصف حمولته خل، والنصف الآخر من العسل.

وأصدر القاضى حكمه:

- ابحث عن جملك حيث يمكن أن تجده، فهؤلاء الرجال أذكياء استطاعوا أن يتعرفوا إليه عن طريق العيافة والقيافة، وقص الأثر، ولم يروه شكلاً وواقعاً.

ثم اتجه إلى الأخوة الثلاثة يسألهم:

- وأنتم ما قضيتكم؟

فأجابوه:

- سيدى القاضى، عندما انتقل والدنا إلى الرفيق الأعلى، قال وهو يحتضر: محمد يرث، ومحمد يرث، ومحمد لا يرث، ولا نعرف أينا المحروم من الميراث، فكلنا يسمى محمد، و نريد اليوم أن نقسم التركة التى خلفها لنا؛ ليأخذ كل واحد منا حقه.

فقال القاضى:

- أنتم تقضون الليلة فى بيتى ضيوفاً علىَّ، وفى الصباح أقضى بينكم إن شاء الله تعالى.

استضاف القاضي الأخوة المتخاصمين، وأنزلهم الطابق الأعلى من بيته ومقر عمله، ثم استدعى خادمه، وطلب منه أن يذهب إلى السوق، وأن يشترى لهم خروفاً، وأن يمضى به إلى البيت لكى يعدَّ لهم عشاء.

ذهب الخادم إلى السوق، واشترى الخروف، ونزع أحشاءه وفضلاته، وحمله إلى البيت لحماً خالصاً ومعداً، وبعد طبخة حمله عشاء إلى ضيوف القاضى الثلاثة، ثم دعاهم إلى تناول الطعام وتركهم، على حين وقف القاضى وراء الباب يستمع إلى ما يقولون.

قال واحد منهم:

– هذا لحم كلب!

وقال الثالث:

– هذا القاضى ابن زنا!

وردَّ الثانى:

– لا يا أخى، لا تقل هذا الكلام على القاضى، من أين عرفت أنه ابن زنا؟

– من يستضيف آخرين، ويدعوهم إلى تناول الطعام، ولا يأكل معهم، ابن زنا أكيداً!

استمع القاضى إلى حوارهم، فلما انتهى حديثهم تركهم إلى جناحه، ثم استدعى خادمه، وقال له:

– لماذا وضعتنى فى هذا الموقف الصعب؟ كيف تذبح لضيوفى كلباً وأمرتك أن تعد لهم خروفاً؟!

وأجاب الخادم:

– وحياتك يا سيدى القاضى إنى ذبحت لهم خروفاً، ولكن النعجة التى ولدته نفقت بعد أن وضعته، فأرضعوه لبن كلبة ليعيش.

دخل القاضى إلى بيته حيث زوجته وأمه وخدمه، وسأل عن التى طهت الطعام للضيوف، وتقدمت إحدى الخدم وقالت:

– أنا يا سيدى: وسأل عن أمه فقيل له: إنها فى غرفتها. وتوجه القاضى إلى أمه، وحين لقيها أمسك بخناقها، وألقاها أرضاً، وأخرج سكيناً وقال لها:

– إذا لم تصدُقينى القول عن أبى الحقيقى فسوف أذبحك!

امتلأت السيدة رعباً، وبدأت تفصح له عن مكنون سرها:

– جئت ثمرة نزوة عابرة، فى ساعة ضعف من رجل غير زوجى!

فى الصباح استدعى القاضى الأخوة الثلاثة ليقضى بينهم، فوقفوا أمامه، وسأل أولهم:

– كيف عرفت أن اللحم الذى تناولتَّه فى العشاء كان لحم كلب؟

فأجاب:

– لأن لحم الخروف ليس فيه ألياف، أما لحم الكلب فنعم.

ولم يسأل الثانى شيئاً، ولكنه أصدر حكمه:

محـمـد الأكـبر يرث، ومحمد الأوسـط يرث، ومحـمد الأصـغر لا يرث.

واحتج الأصغر، وسأل القاضى عن السبب فأجابه:

– ابن الزنا وحده، هو الذى يستطيع أن يميز شخصاً آخر ابن زنا مثله!

عندما يُريد الله

كل ما هو طيب يجيء من عند الله، سبحانه الأعلى، القوى القادر، مالك الدنيا والآخرة، الواحد الأحد، الفرد الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

وهو الذى قدَّر أرزاق الفانين من عباده، وكتب مصائرهم منذ الأزل. وحدث لسى **العربى بولحية**، خادم الله، ما سوف أقصه عليكم.

كان **بولحية** كاتبًا متواضعًا عند أحد الموثقين، يخطئ ككل أبناء حواء، ولكنه يخاف الله، ويسير على سنة نبيه ﷺ، وزوجته **رحمة** غسالة ماهرة، تعمل عند امرأة شركسية، اشتهرت بجمالها، وبأنها موضع الرعاية الملكية والحظوة السلطانية، فهى تتحكم داخل القصر الملكى كما تشاء، وتفعل ما تريد.

كانت وظيفة **رحمة** أن تعنى بتنظيف أثاث بيت سيدتها القوية، ورعاية مفروشاته، عنايتها بعينيها، ولكن ذلك لا يمنع أنها كسول بالطبيعة غارقة فى الأحلام والأوهام أكثر الوقت، تستجيب لها أكثر مما يجب.

ويمر الزمن، وتهرب الساعات، واحدة وراء أخرى، على حين تعيش رحمة فى عالمها الخيالى العجيب، الملىء بالأساطير والرؤى، تلك التى حكتها لها جدتها ذات يوم، عندما كانت طفلة صغيرة.

وسرحت بها الأحلام:

إن الله كريم، بل هو أكرم الأكرمين جميعًا، فلو دلق سخاءه فوق

سيدي العربي، وأصاب هذا مالاً وفيراً، فسوف يشترى لى صديريًا رائعًا، يلف جسمى الجميل، فيعجب بى سيدى، وأزهو به بين أقرانى، وأكون الوحيدة التى ألبسه بين أترابى، بينما يمضين جميعًا فى ثياب مهلهلة، شبه عاريات!

وغرقت فى متاهة من الرغبات والآمال والأحلام، وبينما الماء يجرى، والفراشات تسبح، والطيور تغرد، تظل ذراعا رحمة الغسالة كسولتين، تلفهما رخاوة ندية، فلا تحركهما إلا فى عناء شديد.

وكان زوجها الطيب يؤنبها دائمًا على كسلها وأحلامها الكاذبة، ويرى – والحق معه – أنها من وساوس الشيطان الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس، أخزاه الله، وتنبأ لها بمصيبة تهشم رأسها، وتزلزل كيانها، وتهبط عليها فجأة، فى وقت قريب أو بعيد، ولكنه قادم على كل حال، فتطحن أوهامها، وتبقى عاجزة عن عمل أى شىء.

وذات يوم، ورحمة أبعد ما تكون عن مكانها الذى يجب أن تكون فيه، تركت خيالها – كالعادة – يتوه بين ما هو ممكن وما هو مستحيل، وفى هذه اللحظة هبطت عليها جوائح الزمن التى بشر بها زوجها، جاءت بأسرع مما توقعت، فى شخص معزة هزيلة، التقطت منديلاً حريريًا من مناديل سيدتها والتهمته، وأدركتها وهى تستعد لالتهام ملابس أخرى، وفى أحسن الحالات تأخذها وتخرج بها إلى شاطئ النهر.

وأخذت رحمة المكروبة تصيح:

يا أمى العزيزة، أين أنت؟ أى سياط دامية تنتظر ظهرى، وأى

عقاب قاس سوف توقعه بى سيدتى، وكيف ألقى زوجى، **سيدى بولحية**، الرجل الطيب الحيى، وسوف يفقد عمله موظفًا، وهيبته رجلاً، بسبب كسلى واهمالى وتهاونى؟!

إن الناس جميعًا، من يعرف ومن لا يعرف، لن يتوقفوا عن لومه بسبب خفتى وطيشى، وعن اتهامه بأنه يلطف معى، ويعاملنى بالحسنى، ويدللنى كثيراً، مع أن فى استطاعته أن يقسو على لأتعلم، وأن يحاسبنى بشدة فلا أهمل، وأن يضربنى من حين لآخر ليوقظنى من الأحلام والأوهام التى أعيشها.

ولم تجد وسيلة تخرج بها من محنتها!

وبما أن فى الجرأة العاجلة العلاج عادة من المصاعب الكبيرة والأزمات الطاحنة قررت أن تذهب إلى الخطر بدل أن تظل مكتوفة اليدين تنتظره كى يجىء إليها، فمضت تبحث عن زوجها، وتلقى بين يديه، مرة واحدة بالمصيبة الكبيرة التى أوقعها سوء الحظ فيها، ثم تنتظر العقاب الذى يسبقه أو يوافقه أو يعقبه سيل من الشتائم والسباب، مع مزيد من اللكمات والضربات.

كم كانت المفاجأة مذهلة عندما وجدت الزوجة الحزينة زوجها، وقصت عليه حكايتها، فإذا به يداعب لحيته برقة، ويذوب شره فى فيض من البشر والبهجة، ويصيح بها:

– يا **رحمة الله!**، انظرى يا ابنة الشياطين، إن بركته سوف تهبط علينا، وتستقر معنا ولن تفارقنا.

وأسبلت رحمة عينيها، وأرخت نظراتها، وراحت تسائل نفسها: هل ركبت سيدى بعض الأرواح؟، وقبل أن تسترسل فى حيرتها صاح بها:

- اذهبى الآن فوراً إلى القصر سريعًا، فى مثل لمح البرق، وقولى لسيدتك أن هذا المنديل الثمين قد ضاع، وبما أن الشبهة سوف تنحصر فيك فأكدى لها أننى ساحر ماهر، أعرف الكثير، وقادر على تسخير الجان و العفاريت، وإذا استشارونى فسوف أستطيع بالتأكيد أن أدلهم على المكان الذى استقر فيه المنديل.

أطاعت الغسالة، وجىء بالكاتب زوجها كما هو متوقع، وتقدم إلى السلطان، وبين يديه أخبره:

- أيها الملك القوى، إن المنديل المختفى يوجد فى بطن معزة حمراء، فيها نقاط بيضاء، وقرنها الأيسر مكسور.

ابتسم الوزراء وهم يستمعون إلى هذا التأكيد الغريب، واختلفوا بين مصدق ومكذب، وإزاء إصرار الكاتب، وحديثه فى لهجة الواثق المطمئن المقتنع، فتشوا عن المعزة التى تحمل الأوصاف المذكورة وجاءوا بها إليه، ووقف بولحية إزاءها، ووشوش بعدة جمل غامضة، غير مفهومة، وأصدر أمرًا بذبح المعزة، وكانت المفاجأة: وجدوا الشىء الضائع فى بطنها!

وهكذا شاء القدر والمصادفة والظروف أن يصبح بولحية أكثر الفقهاء علمًا فى المملكة، وأن تتأكد مكانته فى القصر الملكى، وأن

يصبح من خاصة السلطان، وصاحب نفوذ وسطوة وحظوة، وأن يكسف كل بقية رجال البلاط.

الحمد لله الذى دلق كل خيره على العبد الضعيف!

لم يعد **الحاج العربى** منذ هذه اللحظة يعرف بغير لقبه الرسمى: منجّم القصر. وتدرب على مهنته جيداً، حتى أصبح يستطيع بحيلته وفطنته ومهارته أن يتغلب على أية عقبة تقابله، أو صعوبة تعترضه، وأصبح الناس يلتمسون مشورته، ويستمعون إلى رأيه، ويعملون بما يشير به، وحتى الوزراء أنفسهم أصبحوا يجلونه ويوقرونه، ويقدمون له فروض الاحترام والإجلال، وبدأ أفق حياته وغده عريضاً واسعاً، نقياً صافياً، وأصبح طريقه إلى المجد والثروة مفروشاً بالورود والرياحين.

ولكن.. وآى من لكن هذه.

إن كل شىء فان وزائل فى هذا العالم الخبيث، وللورد شوك على أية حال.

وبينما **سيدى العربى** فى قمة الرضا والسعادة وقعت مصيبة لا حيلة له فى دفعها، ولا مهرب من مواجهتها، وأوشكت أن تأتى على نفوذه وحظوته فى بلاط السلطان، وربما ذهبت برأسه مستشاراً ومنجماً.

فى ذلك اليوم، المشئوم بين كل أيامه، سرقوا الخزانة الملكية، ولم يستطيعوا أن يعرفوا لها سارقًا أو يتعرفوا على مكانها، ولم تُجْدِ حماسة الوزراء، ولا نباهة كبار الموظفين فى ذلك شيئًا، وعندما يئسوا من العثور عليها أشركوا السلطان عاهلهم وسيدهم فى الأمر، ولكن

جهوده كلها فى الكشف عن الغموض الذى يلف الحادثة ذهبت عبثًا، وبدا واضحًا عجز كل الوسائل البشرية المعتادة عن الوصول إلى الحقيقة، ولم يبق من حل إلا اللجوء إلى منجم البلاط القدير، وسوف يستخدم بالطبع كل إمكاناته، ويسخر كل قدراته وعلمه ليرد للسلطان ثروته، ويحول دون ضياع خزانته.

وهكذا أوعزوا إلى السلطان باستشارته. وجدها الحاسدون والحاقدون والأشرار والسفلة فرصة مناسبة ليتخلصوا منه، وكانوا يعتقدون أن **بولحية** ليس إلا دجالاً وغشاشًا وكذابًا، ويشاركهم وزراء الدولة السبعة هذا الاعتقاد، وعندما أوعزوا إلى السلطان بهذه النصيحة كانوا يأملون أن يتخلصوا إلى الأبد من هذا المحظوظ الجديد، الحائز على ثقة السلطان كاملة، وأن يجعلوا روحه تخرج من بين اللحم والترائب، وأن يفارق القصر مهزومًا لا شيء معه غير الجلباب الذى يرتديه، وفى الوقت نفسه يبقون مع الخزانة، لأنهم هم، ولا أحد غيرهم، الذين تآمروا على سرقتها.

وقعت النصيحة من السلطان موقعًا حسنًا، فأمر باستدعاء مستشاره، وأثنى على علمه وقدرته وكفاءته ووعده بأحسن الثواب إذا كشف الغطاء عن أسرار هذا الموضوع الغامض، وتوصل إلى سارق الخزانة ومكانه وهدده بأقصى العقوبات إن فشل فى مهمته هذه.

يا للحاج العربى وسوء حظه!

لعن الله اليوم الذى جاءت أمه به إلى هذا العالم.!

لقد أغناه الله، وأهبط عليه الثروة ما بين غمضة عين وانتباهتها

وبالمثل، فى نفس اللحظة، والمسافة والزمن، سوف يسترد منه حتى الحياة نفسها!

كيف يستطيع أن يواجه هذا الأمر وأن يجتاز هذه المحنة، وأن يتغلب على أعداء السوء؟.

أخذ الرجل الشقى التعس يرتعش، وأسنانه تصطك، ولفَّته برودة قاتلة للحظات، نفذت حتى عظامه، ثم غرق فى موجة عرق غزير، وراح يوشوش نفسه فى صوت خفيض:

- آه يا عربى، كم أنت شقى وتعس، لم يعد أمامك من طريق للنجاة، ولا مهرب من الموت!

هل ظننت فى زهوك وغيك أن هذه السعادة سوف تدوم لك طويلاً؟

ثم توجه إلى السلطان مجيبًا وراجيًا:

- مولاى القدير، وسلطانى العظيم: القضية التى كلفتنى بها بالغة الأهمية، تحتاج فى الحق، فى الحق، إلى سبعة أيام كاملة لحلها، سبعة أيام تمامًا، لا أقل ولا أنقص، فضلاً عن سبعة خرفان سمان تأمر لى بها، وسوف أذبح فى كل يوم منها خروفًا فى صحتك.

وافق الملك على اقتراح **بولحية**، وانسحب الجميع، غير أن الوزراء الذين حضروا المجلس، وسمعوا الاقتراح، أصابهم شىء غير قليل من القلق والهلع والاضطراب، وفاض بهم الخوف، وأخذوا يتهامسون فيما بينهم:

- لا شك أن **بوحية** توصل إلى معرفة من ارتكب السرقة، ويؤكد هذا أنه طلب سبعة أيام ليتوصل إلى الحل، وسبعة خرفان سمان يذبح فى كل يوم منها خروفًا، ألسنا نحن الذين ارتكبنا السرقة سبعة؟. من الأوفق إذن أن نراقب فى هذا الأجل المحدد هذا الكاتب -- أخزاه الله! - وعلى كل واحد منا أن يتجسس عليه ليلة، وأن يراقب بيت حليف الشيطان هذا.

ووافق الوزراء بالإجماع على هذا الاقتراح!

ولم يكد الليل يمد جناحه، ويغرق المدينة فى الظلام، حتى ذهب أكثر الوزراء شبابًا إلى ما وراء باب العربى يتسمع ما يجرى هناك، ووصل فى اللحظة التى أمسك فيها العربى بأحد الخرفان، بينما يقول لزوجته:

- إنها ملكى، ولا يستطيع أحد أن ينتزعها منى.. وهذا أولهم!

وسمع الوزير المتلصص هذا الكلام بين بين، ولكن جملة «وذلك أولهم» وصلته واضحة قوية، فأسرع هاربًا ومرعوبًا، وعاد إلى رفاقه فوصلهم فى لمح البصر، حيث كانوا جميعًا مجتمعين فى انتظار رأيه. وعندما وصل صاح فيهم:

- لقد ضعنا جميعًا، لم أكد أصل إلى بابه المغلق، باب ذلك الشيطان أو أى شىء كان، حتى سمعته يقول لزوجته: هذا هو الأول.

وفى الليلة التالية ذهب الوزير الثانى يتجسس فى الساعة نفسها، وما أن بلغ الباب حتى سمع **بوحية** يصيح من الداخل:

– وهذا هو الثانى، والله العظيم يجب أن آكل كبده مشويًا!

وهرب الوزير المرعوب فى لمح البصر، لم تحمله قدماه، ولم يشك لحظة واحدة فى أن بولحية يتحدث عنه، ولم يرد بخاطره أبداً أن حديثه إلى زوجته إنما كان عن الخروف، وبدأ يقنع زملاءه بما يجب عليهم أن يفعلوه لينقذوا أنفسهم، بأن يكتشفوا داخل الكاتب وأن يجسوا نبضه لمعرفة ما إذا كان يمكن أن يصلوا معه إلى اتفاق!

وهكذا رتبوا نزهة ريفية، تجمعهم به كلهم، وبعد وجبة طعام لذيذة ودسمة اقتحموا الموضوع مباشرة قائلين:

– يا **حاج عربى**، أيها الفقيه العارف الموقر، نحن فقراء إلى الله، وخدمه المطيعون، وعباده الساهرون، ونشعر نحوكم بإعجاب كبير، ونكن لكم وقاراً عظيمًا، لا يقلّ مع الزمن ولا يبهت، ومنك نرجو أيها الفقيه العارف الواصل شيئًا من الرحمة، ملأ الله بيتك بالمال والبنين، لماذا لا تقول لنا:

هل نحن مسلمون أو غير مسلمين؟

وأسرع الكاتب يهمهم:

– لا إله إلا الله محمد رسول الله!

– وبما أننا مسلمون، وقلوبنا مسرورة بما تناولنا من شهى الطعام الذى تقاسمناه، احلف لنا أنك لن تخسرنا.. أقسم بأنك لن تظهر أسماءنا، وسوف نعطيك الخزانة المسروقة.

لم يظهر **بولحية** أية إشارة تنبىء على أنه فوجئ بالأمر، وظل واثقًا من نفسه تمامًا، متظاهرًا بالشفقة، ووعد بالصمت، وأن كل شىء يجب أن يعود إلى مكانه كأن لم يحدث شىء.

وفى اليوم الذى انتهى فيه الأجل الذى حدده السلطان، أعلن **بولحية** أنه بفضل السحر، وقدرته على تسخير الجن، استطاع أن يسترد الخزانة، وأنهم سوف يجدونها فى مكانها، غير أن علمه وجهده وقف به عند هذا الحد فلم يستطع أن يتوصل إلى اكتشاف أسماء اللصوص الذين سرقوها.



وأظهر الملك ابتهاجه باسترداد خزانته، ولكن سحابة شك ألمت به، وبشىء من التفكير والتأمل بدا له أن ثمة شيئًا غامضًا فى العمق، وأن هناك سرًا خفيًا وراء

الظاهر، ولذلك قرر أن يضع قدرة منجمه ومستشاره موضع الاختبار من جديد؛حتى لا يستطيع أن يخدعه أو يغشه.

وحانت لحظة الامتحان.

أمر السلطان بأن يوضع تحت عرشه ثلاثة أوان، وأن يُملأ الأول عسلاً، والثانى سمنًا، والثالث قطرانًا، ودعا كل رجال البلاط، وأمر بإحضار **بولحية** ليتنبأ بما فى هذه الأوانى الثلاثة.

وأحس الرجل المسكين بأن رأسه يتراقص بين كتفيه، وبدأ يتشهد سرًا قبل أن يأخذ طريقه إلى الدار الآخرة وأغمض عينيه لحظة، وفكر: إن قضية المنديل والخزانة كانت فطيراً وحلوى بالنسبة إلى هذا المأزق، وأشار إلى الأوانى الثلاثة موضع التجربة والاختبار، وراح يردد هامسًا:

- الأول حلو، والثانى أبيض، والثالث أسود.

نزل **السلطان** من على عرشه مسرعًا، وعانق **بولحية**، وقبل رأسه وأعلن على مرأى من الجميع أن **الحاج العربى بولحية** هو أشهر المنجمين، وشيخ الفلكيين، وأعظم السحرة الذين عرفهم هذا القرن!

ثم غمره بالألقاب والهدايا والأموال!

وقَد تغلبُ الحِيلة !

تلك الأمسية، من ذلك اليوم، ونسيم الصَّبا حلو طرى، يلف الغابة، ويداعب أوراق الشجر، ظهر الثعلب خلسة، يتمشى وانيا على مهل، فوق الحشائش المبتلة، وقد بدأ رحلته بلا غاية محددة، يجر ذيله، ويتشمم بأنفه الريح القادمة، باحثاً عن مغامرة جديدة، وقد انتفش زهواً، وامتلأ عجباً، وبلغ منه التيه بنفسه غايته، لقد تعود فى لحظات فراغه أن يتجول فى الغابة بين الأشجار الكثيفة الملتفة العالية، يتشمم رائحة حبيبة يمنة ويسرة، يطلب ثعلبة فتية، ويأمل أن يقيم معها علاقة غرامية، ولكن جهوده هذا المساء ذهبت عبثاً، ولم تقدم له الغابة أى بارقة أمل، فى لحظات من هذه المتعة، ولم يحمل له النسيم أية دلالة خاصة، تدغدغ مشاعره، وتدوّخ حواسه، ولم يلمح ظل ثعلبة واحدة، عبر الأميال التى تحيط به، والتى قطعها يطأ الثرى مترفقاً، ثم جاء الفرج من لون آخر، فقد اصطدم بقوة، مع دجاجة غافلة، تسترها أيكة، لم تكد تراه حتى اضطربت بقوة، وحاولت الإفلات مسرعة، وأنّى لها هذا، فما هى إلا ثوان حتى أصبحت فى قبضته، فأطبق عليها فى بهجة غامرة، أمسك بها من ساقيها، وبدأ يمص دمها فى نهم شديد .

وفجأة أمال أذنيه، وانتفش شعره غريزة، فقد رأى شيئاً ما يتحرك بين أشجار الغابة، ولم يكن ذلك الشيء مما يناسبه على التأكيد، وفيما هو بين الشك واليقين من أمره، سمع زئيراً هائلاً لا يخطئه السمع، هز الغابة على امتدادها.

إنه صاحب الجلالة الأسد بنفسه، يتحرك على مقربة من هذا المكان. ولم تكد هذه الحقيقة تستقر فى أعماق الثعلب، حتى تجمّد الدم فى عروقه، وتغشّاه رعب شديد: وقف شعره، وارتعدت فرائصه، وزاغت عيناه، ولكن حب البقاء جعله يتماسك، ويفكر: كيف يواجه هذا الخطر القادم؟ الطريقة الوحيدة أن يتنازل باحترام عن مكانه لملك الغابة، وأن ينسحب بهدوء شديد، فى صورة مؤدبة، قبل أن يصل صاحب الجلالة، ولكن همته القطّية لم تسعفه، وهدوءه الشديد لم يجده شيئاً، فما هى إلا وثبتان وأصبح ملك الغابة إلى جواره، ولكن، الحمد لله على أية حال؛ لأن ملك الغابة لم يأت غاضباً أو ثائراً أو باحثاً عن سلطان، وإنما جاء جائعاً، شديد النهم إلى أكلة دسمة، ولذلك ما إن رأى الثعلب حتى انتفشت لبدته، وهز ذيله، وراح يضرب فى خبطات سريعة عجلة، وبدا فمه مفتوحاً واسعاً رهيباً، متسلحاً بأنياب بدت أكبر من أنياب أى أسد آخر فى الغابة.

ماذا يصنع الثعلب الغلبان؟

تظاهر فى مواجهة الأسد بالندم والإرهاق، والضعف والإنهاك،

ومثّل دور التابع المطيع، رافعاً إحدى ساقيه، متظاهراً بأنها معطوبة، وفى صوت خفيض يقطر ذلاً وتواضعاً تحدث:

- السلام على سيدنا ومولانا ملك الغابة الشرعى وكل الحيوانات، أصاب الله بالعمى من ينظر إليكم دون إجلال لعظمتكم، انظر إلىّ سيدى كيف أنا؟ ضعيف مريض، منهك معطوب، ومع ذلك منذ أن انتصف النهار وأنا أتذلل وأتمرغ فى الوحل، وأضرب عبر الغابة من أولها إلى آخرها، باحثاً عن وجهك المنير، مرآة الصلاح والطيبة والكرم...

بدا الأسد فى صورة من يرق لحاله، فسأله عن السبب، والمتسبب، ومن يكون؟

- امرأتى يا سيدى، فهى الأكثر وَقْوقَة وعصياناً بين كل الثعلبات، وقد حلفت أمام شهود أنها طالق بالثلاثة، حتى تفقد الأمل فى العودة إلىّ، أو تأمل فى أن أحنّ إليها وأسترجعها، ولكنى لم أستطع أن أجعلها ترحل من وجارى.

- أنت لست فحلاً أولاً، وبلا كرامة ثانياً، وحتى المخلوق البسيط الضعيف يعرف ما الذى يعيد الأنثى إلى صوابها: أن تفقدها وعيها فى الحب! أو أن تضربها بالعصا من حين لآخر، لكى تهدهد من

خيلائها وعجرفتها، والوسيلة الأولى أمثل وأنفع وأجدى.

- سيدى، كيف أصنع هذا، إذا كانت هى الأقوى، فهى أصح منى عافية، وأشد قوة، وأسلم بدناً، إلى جانب أن أبناءها التسعة ينحازون جميعاً إليها، ويقفون إلى جوارها، ويدافعون عنها؟ إنى أضرع إليك أيها السلطان العظيم أن تصدر قراراً فى قضيتى الخاصة هذه، وأن تقرر بما لك من سلطان ما هو حق فى هذه الخصومة، وأن تفرض حكمك على هذه الثعلبة العاقة، وذريتها المتعجرفة، وجحرها ليس ببعيد من هنا.

تردد الأسد لحظة قبل أن يتخذ قراره ويصدر حكمه، هل يستجيب لفطرته، ويرضى غرائزه التى تتحرك بقوة فى باطنه، فيفطر بهذا الثعلب الكثير الشكوى، ويضع حداً نهائياً لجدله ولجاجته، وحفلاته وسمره؟ ثم توقف بعض الشىء صامتاً، وأدار فكره، ثم قرر أن يسكت جوعه الآن، وأن يتابع الثعلب حتى وجاره، وهناك يقضى على هذه الأسرة القلقة كلها، ويريحها ويريح الغابة منها كلها، من اختلافاتها ومشاحناتها، وينعم بأكلة دسمة بدلاً من هذا الثعلب الكسيح وحده، وتلمظت شفتا صاحب الجلالة، وهو يتخيل الحفلة الفخيمة التى سوف تقام له، والمائدة الشهية اللذيذة، العامرة بلحم الثعلبة وأبنائها...

وتحرك الملك وحاشيته، وعندما اقترب من الوجار تقدم الثعلب، ودخل من الفتحة الضيقة، على حين أقعى الأسد على ساقيه الخلفيتين، ينتظر خروج القبيلة الثعلبية ليلتهمها، وأمضى لحظات ينتظر، ولكن اللحظات طالت، وصبره نفد، دون أن يخرج أى كائن

حي من الوجار، وأحس بأن كرامته جُرحت، فقرر أن يكون انتقامه مناسباً للإهانة، ولما طال به الانتظار أطل جلالته من فتحة الوجار وصاح:

- أسرع أيها الثعلب، فليس صواباً أيها العابث أن تجعل سيدك ينتظر، اخرج، لقد نفد صبرى، وطال انتظارى!

ورد السامع، فى اطمئنان شديد، وسخرية بالغة:

- لا تنتظر يا سلطان الحيوانات، وملك الغابة، يمكنك الآن أن تذهب، لأننى وزوجتى قد اصطلحنا، ونعيش منذ الآن فى سلام ووئام.

ولأن مدخل الوجار ضيق لا يتسع لعظمة صاحب الجلالة، ولا يليق بمقامه، فقد انصرف، وهو يتنزّى غيظاً، وينضح قهراً، وعاد القهقرى إلى مكانه، وهو يرسل زئيراً عالياً، هز الغابة من أقصاها إلى أقصاها، يتجرع غصة الهزيمة ويشعر بمرارتها فى قلبه، ويبكى كرامته الجريحة، وقد وعى جيداً أن الحيلة والذكاء كثيرا ما يغلبان القوة!

هذا ما تقوله الحكاية، وعليك أيها المستمع الذكى الفهمان، أن تأخذ منها درساً وعبرة، وأن تتعلم كيف تستغل ذكاءك فى دفع البلاء إذا وقع بساحتك، لكى تعيش سعيداً، فلا تبيع الحاضر أو ترهنه بالمستقبل؛ لأن ما فات مات، والمؤمل غيب، ولك الساعة التى أنت فيها!

يالهَا مِنْ حيَاة مُرِيحَة !

لم يكن **سيد الطويل** رجلاً شريراً، ويمكن القول أيضاً أنه لم يكن مجرداً من النوايا الطيبة، وكان مبدؤه فى الحياة واضحاً: لا تستنفد جهدك، ولا تبعثر قواك، عليك أن تحدد غايتك، وأن ترسم أقصر طريق إليها، وأن تحققها بأقل جهد، وسوف تصل إلى ما تريد وأنت فى أمان.

وعملاً بهذا المبدأ، أو بالجانب الأيسر والأسهل منه على الأقل، بدأ يزهد فى أى عمل، مهما كان الجهد الذى يتطلبه قليلاً، ويزهو بأنه يعرف نهاية كل عمل، والأخطار التى تصاحب إنجازه والقيام به، والتى لا يمكن تجنبها، فالميل إلى الخطأ طبيعة إنسانية.

وشغلته هذه الفكرة، وتضخمت عنده، وتحولت إلى أوهام ووساوس تحاصره فى غدوه ورواحه، وفى نومه ويقظته، فكان يتصور أن أى حركة يقوم بها سوف توقعه فى الخطأ، وأن الخطأ سوف يحمله إلى العقاب، أو إلى المؤاخذة والتأنيب فى أخف الحالات، ومن التردد إلى التثاقل، إلى التوقف، انتهى به الحال فى نهاية الأمر إلى أنه لا يعمل شيئاً، أحياناً يلتقط بقايا حمية ضامرة توقف نموها، وتراوده الرغبة فى أن يقاوم هذه الأفكار العابثة، ولكنه سريعاً يعود إلى نفسه: «إنى رجل طيب، أخاف الله، وأومن بما يقوله **الشيخ قدور** فى خطبة الجمعة، أو

فى أحاديثه الدينية التى يلقيها فى المسجد العتيق بعد صلاة العصر، وهو يحذر الناس من تحدى الإرادة الإلهية، والخروج على إرادة الله، فمن حسن الإيمان الرضا بالقضاء والقدر، خيره وشره.

كان **سيد الطويل** مديد القامة، ومن هنا جاء لقبه، ومنذ طفولته الطرية تنافس فى جسمه أمران: نموه البدنى وكسله فكان المغربى الأشد طولاً والأشهر كسلاً بين أبناء السلطنة، ودائماً يستطيع تبرير هذا الكسل، وما يخدر به أى بادرة لوم يمكن أن تنمو فى داخله، أو تأتيه من أحد ممن حوله: ماذا بوسعه أن يفعل، ليس فى مكنته، ولا يريد أيضاً أن يعمل ضد الإرادة الإلهية، أو أن يخرج على قدره، ويسائل نفسه أحياناً، كيف يقضى على كسله، وهو أمر فطرى، كقامته المديدة نفسها، ولا حيلة له فى الأمرين، وإذا كان الله الرحمن الرحيم، القوى القادر، وهبه طولاً ليس لأحد، فمن العبث التمرد على صنع الله، كذلك فإن الميل إلى السكون والراحة أيضاً من عند الله، ويجب أن يكون له معها الموقف نفسه: أن يقبل هذه النزعة، وأن يرضى عنها، وأن يحترم مشيئة الخالق الأعظم الذى قدر لكل شىء قدره فى الأمرين.

تعود سيد الطويل أن يبقى جالساً فوق حصيرة مهلهلة، فى غرفته



قدر لا مهرب منه ولا حيلة له فيه، ورأى نفسه صورة حية للمثل الشعبى الشهير: الجلوس خير من الوقوف، والنوم أفضل من الجلوس والموت خير منها كلها، إنه مثل يضم فى كلماته البسيطة لمن يدرك معناه خلاصة فلسفته العميقة التى يؤمن بها.

لكن الجسم الإنسانى فى آليته لا تحكمه أو توجهه الفلسفة وحدها، وهو جالس على الحصيرة يعانى جهداً كبيراً لا يحتمل حين يتحرك يمنة ويسرة، ويستجمع قواه حين يجلس لتناول الطعام، والذى يأتون به إليه مرة واحدة فى اليوم، ومع تكرار هذه الحركة أصبح يحس معها بآلام ومضايقات، **ويراها** عذاباً فوق طاقته، وأنها إنذار من السماء، وتذكير بقضاء الله الذى يتمرد عليه حين يتحرك؛ ولذلك قرر أن يتناول طعامه ممدداً فوق حصيرة، برهاناً واضحاً على السمع والطاعة، وتجنباً لأية بادرة تشى بأنه يصنع ما يمكن أن يعد تحدياً للإرادة الإلهية، وبذلك يصبح فى مأمن من عذاب الآخرة، أما صراخ المعدة فهو من عذاب الدنيا، وهو محتمل، حتى لو كان جوعاً مميتاً.

إلى ذلك كله هو يرى أن صوت الناس من صوت الله الذى يجب أن يسود، والناس عنه صامتون، ومتكئاً على الخضوع للقدر ترك الكسل ينمو فى أعماقه، ويسيطر عليه، ويوجه حياته، ومع تراجع إرادته أخذت ثروته تتناقص وتتراجع، كما يختفى الشاطىء تحت مد البحر وتدافع الأمواج، وبلغ به الحال أنه لم يعد قادراً على أن يحمل اللقمة إلى فمه، على حين تطلع فوجد ثروته قد نفدت، وساعتها تذكر الفقرة الأخيرة من المثل الشعبى المحبب إليه: أن تموت أفضل من أن

تظل متمدداً، وقرّ رأيه على تنفيذ هذه الحكمة، فاستدعى أقرباءه وأصدقاءه ومعارفه لكى يتوسل إليهم بكل ما يؤثر فيهم، أن يخبروه لماذا لا يجد أى رغبة فى أن يتحرك من مكانه ولا قيد أنملة، وليحيطهم علماً بما انتهى إليه من أنه قرَّر الرحيل.

كان الجميع يعرفونه جيداً، مثالاً حياً للكسل والتراخى، نعم، ولكنه من جانب آخر كان نموذجاً للطيبة والصلاح، لا يؤذى أحداً، ولا ينال مخلوقاً بسوء، ولو بالكلمة المرسلة، وبين الدموع الهطلة أسفاً على فراقه، والتوبيخ الموارب ملامة لاتخاذه هذا القرار، بقى **سيد الطويل** عند موقفه لا يتزحزح، وانتهى الأمر بالذين حوله، وقد رأوا أنفاسه تخمد، ودقات قلبه تضعف، أن أعدوا له نعشاً ووضعوه فيه، وانتظموا موكباً حوله، يشيعونه إلى مثواه الأخير، وتحركت الجنازة فى طريقها إلى الجبانة، وانتظم الناس وراء النعش صفوفاً، وهم يذكرون الله بصوت مرتفع: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله».



وعندما وصلت الجنازة إلى نهاية الزقاق وضع شيخ وقور يده على مقدمة النعش فلحظ فى دهشة مكتومة أن الجثة التى بداخله تتحرك، فاقترب من بداية النعش ولمس القدمين، وكانتا تتدليان منه لطول صاحبهما الشديد، فأحس الميت الحى بأن هناك من يزغزغه فسحب ساقه، وهنا علت دهشة الشيخ الطيب، وارتفعت صيحاته، وشعر بالغضب؛ لأنه رأى شريعة الله تنتهك، إذ كيف يدفنون رجلاً حياً، وعبثاً حاول الذين معه أن يقنعوه بأن الرجل اتخذ قراره بنفسه، واحتراماً لرأيه نفذوا له ما طلب، وكان منطقا مقنعاً، ولكن الشيخ الوقور لم يقتنع بما قالوا، واتجه إلى **سيد الطويل** الميت الممدد فى النعش مباشرة:

– قم يا رجل، هل إذا كان ينقصك المحامى الذى يدافع عنك تهرب من الحياة؟ أنا سوف أصنع فيك جميلاً وأقدم لك حماية.

ورد **سيد الطويل**:

– سيدى أنا افتقد الطعام والشراب، وقبل ذلك كله العزيمة والإرادة التى تعيننى على أن أربح لقمة عيشى.

– أنا أقدم لك من الطعام فوق ما تحتاج وأهيىء لك من وسائل العيش ما يحبب إليك الحياة.

– ولكن.. ولكن من الذى يوصلها إلى...

– لا تهتم، سوف أرسلها إلى بيتك.

- ومن . . يوصلها إلى فمي؟

- نعم، ماذا تقول؟

- من . . يوصلها إلى فمي؟

وهنا قال الشيخ يائساً ومَمروراً:

- لا بأس يا سيد، الحق معهم، مثلك مكانه القبر، نعم ما اخترت.

ووضع نفسه على رأس المشيعين وهو يردد معهم:

لا إله إلاّ الله، محمد رسول الله!

الدُّنيَا.. خُـدْ وهَات!

حلت ساعة الظهيرة، وفيها يحلو النوم والاسترخاء، وقد اعتاد **المفتى** من زمن طويل أن يستريح لحظة القيلولة وأن يخلد إلى إغفاءة تطول أحياناً فتبلغ ساعتين، ولكنه فى هذا اليوم استعصى عليه النوم، وعبثاً حاول أن يسترضيه، وأن يمسك به، ولو للحظات قصار، أغمض عينيه، وأرخى بدنه، وأطلق لأحلامه العنان، ولكن محاولاته كلها ذهبت عبثاً، ولم تجد معاونة الزوجة شيئاً، وهى تقص عليه من الحكايا ما يملأ خياله، أو يدغدغ حواسه، فتطبق أجفانه، وتجعله أشد استرخاء، وأكثر قابلية للنوم.

ويتقلب **المفتى** ضجراً، ويتنهد آسفاً وضائقاً:

- **ياسمين** يا ضوء عينى، وقرة نفسى لا أرى فائدة فيما تحاولين وأحاول والخير أن نستسلم لإرادة الله، وأن نرضى بقضائه، وأن نسعد بنفاذ حكمه، ذلك ما أومن به وأراه، عندما أشعر أن الحمى التى تهاجمنى لا تخف ولا تتراجع حتى وأنا أضمك إلى صدرى، أقبّل وجنتيك، وأمص شفتيك، ويختفى وجهى وراء شعرك الجميل المرسل، أو أقع تحت سحر عيونك البابلية، حماك الله، وأسعدك، ومتعك بالصحة، ومنحك كل الخير، واصلى حكاياتك اللذيذة يا **ياسمين**، ونصائحك المفيدة، فهى وإن لم تدفع الحمى أو تجلب النوم تذهب بالملل الذى يملأ وجدانى، ويطفو على روحى ويجعلنى ضجراً من كل شىء، ولست سعيداً بأى شىء.

– استرح سيدى ومولاى، مجدى وشرفى وتاج رأسى، سوف أقص عليك حكاية **مصطفى التلمسانى**، وما حدث له، وأنا واثقة أنها سف تدخل على نفسك الرضا والبهجة وتخفف عنك زفرات الحمى والملل.

ما حدث **لمصطفى التلمسانى** عجيب وغريب، فيه عظة وعبرة وهداية لمن شاء أن يهتدى، ومثلك أحق الناس بأن يعرف ما كان منه، وما حدث له،

– قولى، زيدينى، زادك الله رفعة وشرفاً فى الدنيا والآخرة.

– كان **مصطفى** هذا، أو **سى مصطفى** كما ينادونه، تاجراً، واسع الثروة، عظيم القوة والخطر، بلغ من الغنى والجاه والنفوذ حداً كبيراً، يستطيع أن يرتفع بالصديق المعدم، إذا أراد، إلى أعلى عليين، وأن يهبط بالخصم الذى يكره إلى قاع البؤس والشقاء والذلة.

وقبل أن أكمل بقية الحكاية، عليك أن تحمد الله، مالك السموات والأرض، وما فيهما وما عليهما، الذى أرسى الجبال، وأجرى الأنهار، ورفع السموات بغير عمد، ونظم الكون بحكمته وقدرته، وسطر كل ذلك فى اللوح المحفوظ من قبل أن يخلق البشر.

– لا عليك يا حلوتى، له الحمد على ما أعطى والشكر على ما منح، وعلى رسوله سيد الخلق، وهادى البشر، أفضل الصلوات والتسليم.

– عليه الصلاة والسلام:

كان **سى مصطفى** تاجرا ذائع الصيت، موفور الرزق، عريض الجاه، ماهراً فى إدارة أعماله، قوافله التى تحمل تجاراته لا تتوقف، قادمة من اليمن، أو ذاهبة إلى مصرا لمحروسة، تحمل البضائع المتنوعة، والمطلوبة، يتعامل مع كل تجار الأرض، يربح دائماً، وتنمو تجارته، وهى كل يوم فى ازدياد حتى أوشكت ثروته أن تسد الأفق وتطاول عنان السماء.

– لا جديد فى هذا يا سمينتى، فأهل تلمسان مشهورون بالتجارة من زمان.

– صبرك بالله، يا سيد العارفين، لقد كان فى ثروته سيداً فرداً، ولم يهب الله مؤمناً من قبل ما وهبه لسى مصطفى هذا، ومن جانبه قابل هذا الفيض فى الرزق، بالمزيد من العبادة وشكر الله، فهو يوزع كل عام عُشْر ما يربح زكاة على الفقراء والمحتاجين والمساكين وأبناء السبيل، ورغم ذلك فإن ثروته فى ازدياد، لأن التجارة إذا أحسن صاحبها إدارتها، واتقى الله فيها، لا يتوقف نموها حتى لو شبت النار فيها، سوف تتعب من التهامها، ولن تأتى عليها كلها.

– من كان مثله ضمن خيرى الدنيا والآخرة أليس كذلك؟

– لا، سيدى ومولاى وتاج رأسى، مع ذلك لم يكن سعيداً، بل فقد لذة العيش فى أيامه الأخيرة، واعتزل الحياة والناس، وزهد فى كل شىء، وعكف على التزود للآخرة، يمضى ساعات يومه يقوم الليل، ويتأمل حركة الحياة، ورحلة أنداده إلى الدار الآخرة، ويستخرج من كل ما يرى العظات والعبر، ولم يكن مع ذلك يخاف الموت، فهو يرى أننا من عند الله جئنا، وإلى الله نعود. وما كان يقلقه ويحزنه، مستقبل ثروته وتجاراته، وحصيلة جهده وتعبه، فمصيرها إلى التلاشى والزوال، وتصبح مثل أحلام المفلس أثراً بعد عين.

– وما مصدر هذا القلق يا زين النساء، إذا كان كما تصفين غنى وتديناً؟

– آى من الدنيا سيدى ومولاى، إنها لا تعطى المرء كل ما يحب ويتمنى، وإنما تبقى دائماً على شىء ينقصه، لتشعره بالنقص والضعف، وفى الوقت نفسه تدفعه إلى العمل والسعى وراء الكمال، ذلك أن سيدى مصطفى لم يرزق غير ابن وحيد من محظيته الجميلة **ثريا** زين نسائه، وإشراقة حياته، وجاء الابن وشب، قوى الجسم، متين البنيان، مفتول العضل، ولكنه فى الوقت نفسه بالغ الحمق والعبط والسفه، تنقصه المبادأة والجرأة، ويناديه الناس تظرفاً: «**حكمة الله**».

حالة **سيدى مصطفى** أوجعت قلوب الناس، وجعلت الجميع يشفقون عليه، أما هو فاستسلم لقدره وبدأت بسمة الأمل تأخذ طريقها إلى وجهه، فرحمة الله واسعة ومن ظلام الليل يشرق الفجر،

ويعقب الليل الدامس نهار شديد الضياء، وما من خير يرجى وراء التمرد على القدر، والمسلم الحق يجب أن يكون متواضعاً وصبوراً وراضياً بقضاء الله، فالثروات والأموال عارية مستردة، يهبها الله أكرم الكرماء وسيد الأجواد لمن يشاء ويستردها متى شاء.

وشُغلت **ثريا** بحال زوجها، وهي ترى الحياة تتسرب من بين يديه في سلاسة وأهمها أمر ابنها أيضاً، فهي أم ومسئولة عن الاثنين: زوجها وما سوف يترك، ومستقبل ابنها الوحيد مهما يكن حاله، فهي التي حملته وأنجبته وأرضعته، وفي دفء حضنها تربى، فلم لا تحاول إقناع سيدى مصطفى معتمدة على جمالها ومكانتها منه، بأن يعطى ابنه جزءاً من هذه الثروة يبدأ بها تجارة رابحة، فقد يكرمه الله ويكون صورة من أبيه. من يدرى؟

استجمعت شجاعتها وأخذت زينتها، ارتدت خير ملابسها، أغلاها وأشفها، ولبست كل جواهرها، ودخلت عليه غرفة نومه، وعيناها تفيضان دمعاً، يغرق أهدابها الجميلة، وينحدر على نحرها، حتى يستقر على نهديها، ثم اقتربت منه، وفي صوت هامس غَنِج متكسّر وشوشته:

– سيدى، رفع الله قدرك، وأعلى مقامك، ومجّد ذكرك، وأنار وجهك...

واستجمع سى مصطفى ما بقى من عافيته، وهو يحدق النظر فيها معجباً ومتعجبّا:

– أضاء وجودك الغرفة كما أضاءت حياتى، طوال وجودك إلى جانبى، قولى : ماذا هناك، ماذا تبغين...

– جئت أطلب عونك فى أمر ابننا، ثمرة حبنا، وموثق الرابطة بيننا، جئت إليك متوسلة، ضارعة مبتهلة أن تعطيه شيئاً من المال يمكنه أن يبدأ به حياته تاجراً.

– لا تحاولى حبيبتى، سوف يكون الأمل فيه كمن يغرف ماء بغربال، لا فائدة! لقد جمعت إلى الجمال الرزانة والعقل، وأعتقد أنك إذا حكّمت عقلك سوف توافقيننى على رأيى...

– كل ما أنا فيه من فضل خيرك، عطاياك التى لا تنفد، وهباتك التى لا تتوقف، جعلك الله عوناً لى وسنداً فى الدنيا والآخرة.

– كل ما أعطيته لك يا قرة عينى كان عن طيب خاطر، فانعمى به، واسعدى بإنفاقه، فما نملك من ذهبٍ ليس خالداً لنا، الله وحده الخالق القوى هو القادر الخالد، ما سوف نعطيه **لحكمة الله** مخاطرة، وإذا وافقت على المخاطرة فهو ابنك، من دمك فلذة كبدك، وأمل حياتك أمّا أنا...

– أنت ماذا؟ أنت شريكى فيه، هو قسمة بيننا، ليس لأحد فيه أكثر ممّا للآخر، ولن أعطيه شيئاً مما أملك، إلاّ إذا باركته، وكنت راضياً عما أفعل، فأنت مولاى وسيدى، لا أقدم على أمر مهما صغر أو كبر، إلا بعد إذنك ورضاك!

- أحلف لك بالله ورسوله وكتابه، وقواعد الإسلام الخمس، أن لا فائدة ترجى من وراء هذا الولد، مهما أعطيناه، إننا نكون معه كمن يحاول أن يدفع العواصف بشباك من حديد، إننى لو دفعت بأموالى إلى شاعر لكانت أكثر أمناً.

- وافق من أجلى سيدى، هداك الله إلى الخير، وقادك إلى السعادة، ووسع عليك فى الرزق أكثر وأكثر، وأفاض عليك من نعمه ظاهرة وباطنة، وحقق لك كل ما تحب دنيا وآخرة.

استسلم الزوج أمام توسلات **ثريا**، ضعف أمام الدموع تنساب من عينيها الجميلتين، على وجنتيها الورديتين، ولمسات كفيها الناعمين، تربت بهما على ظهره، أو تداعب بهما لحيته، أو تدعك أذنيه دعكاً خفيفاً، كما اعتادت أن تفعل معه فى لحظات السرور والحنان.

تراجع الزوج أمام ذلك كله، انتصرت الأنوثة، وأمر بأن يعطى **حكمة الله** مبلغاً من المال يبدأ به مشروعه تاجرا، وزاد فأمر بأن تعد له سفينة ليست بالصغيرة ولا الكبيرة، وأن يتم ذلك كله فى أسرع وقت، وأوصاه بأن يشترى أفضل البضائع، سهلة البيع، وفيرة الربح، وأن يتزود بالصبر عند الاختيار واتخاذ القرار، وودع ابنه عند الرحيل، داعياً الله أن يكون إلى جواره، فى غدوه ورواحه، وحله وترحاله، وأن يحرسه من كل سوء، وأن يوفقه فى سفرته هذه باحثاً عن حظه ورزقه ببركة نبيه والصالحين من أوليائه.

أقلعت السفينة بسهولة، وشقت طريقها داخل البحر، وغابت عن الأنظار تماماً، ولم يعد أحد يرى منها شيئاً، وعاد المودعون إلى بيوتهم،

وترك **سى مصطفى وثريا** أمر ابنهما وسفينته لله، فلن يحدث له على أية حال إلاّ ما خُطّ فى اللوح المحفوظ.

بلغت السفينة غايتها ليلة عيد الأضحى ولم تكد تلقى مراسيها حتى قفز **حكمة الله** إلى اليابسة، فوقعت عينه على رجل بائس، مهلهل الثياب، يقف أمام آلة بسيطة، تحرك حجراً ضخماً مستديراً من الصوان، وهو أمامها يسنّ سكاكين من كل الأنواع والأحجام، يؤدى عمله بهمة، والشرر ينبعث من السكاكين، ويتطاير حوله، ويصنع دائرة حوله دون أن تحرقه أو تخيفه، كان يرى هذا المشهد للمرة الأولى فى حياته، فأخذته الدهشة، واعتقد أن فى الأمر سحراً، وأن الشيطان يكمن وراء هذا، وإلاّ كيف تتولد النار من حك السكين بالحجر، وأنّى لحجر واحد أن يسنّ كل هذه السكاكين، وراح يهمس لنفسه فى سره: وحياة أبى، إن ذلك لم يحدث قطّ، وإننى فى حياتى لم أر هذه المعجزة، ومن رجل بائس فقير، ضعيف الجسم، مهدود القوى. وأهمه الأمر كثيراً، فأخذ يتفحص الحجر فى فضول شديد، ويسأل عن حقيقته فى استقصاء بالغ، أين يوجد، وما ثمنه، وانتهى به السؤال إلى أن هذا الصوان العجيب



يوجد بكثرة فى الجبال التى وراء المدينة وأنه يباع فى أسواقها بأرخص الأسعار، وفيه سر، ومتاح له أن يشترى منه ما يريد، فلماذا لا يحمل منه كل ما تسمح به النقود التى معه، وما تستطيع السفينة أن تحمله، فهى فرصة لن تتكرر، والربح مؤكد، فهو غير موجود فى بلده، وسوف يتسابق الناس إلى شرائه، بأى سعر يقرره، وبخاصة حين يعرفون سره.

وعاد إلى السفينة فرحاً، وقد اشترى من أحجار الصوان بكل ما معه من أموال، واستقرت الأحجار فى مكان آمن من السفينة، وأقلع بها عائداً إلى بلده، حيث أبواه، وقد انتفخ قلبه سروراً، وطالت قامته ابتهاجاً، وامتلأ داخله زهواً!

سمع **سى مصطفى** بوصول السفينة فأسرع للقاء ابنه، وفى نفسه من أمر ما عاد به أشياء، وانتابته هواجس كثيرة، حاول أن يخفف من وقعها على نفسه بالدعوات، واستحضار بركات كل من عرف ومن لم يعرف من الأولياء والصالحين، ونذر أن يوزع نصف ما تربحه الصفقة على الفقراء والمساكين، ولم يكد يبلغ رصيف الميناء حتى وقع الخبر عليه وقوع الصاعقة: إنها تحمل أحجاراً مسحورة!، فأصيب بالغم الشديد، رغم أنه لم يكن منذ البداية يؤمل فى ابنه خيراً، ولشد ما أزعجه، وأخذ يقرع ابنه عليه بغضب وقوة: كيف يحمل فى سفينته أحجاراً مسحورة، والسحرة ملعونون فى القرآن الكريم، وتدينهم الشريعة ومآلهم فى الآخرة جهنم وبئس المصير.

ومحبطاً بلا أمل، أمر بأن تخرج السفينة من الميناء فى الحال، وأن يقلع بها إلى عرض البحر أمهر الربابنة، لعل الله العلى القدير يعينه على التخلص من هذه اللعنة التى جاء بها ابنه، والتى سوف يكون تفريغها جنوناً، وخطراً على المدنية كلها.

وأكد لعامل المدينة الذى تابع الأمر بأنه يدرك خطر هذه الأحجار، وسوف يبذل كل جهده لإعادة بيعها بعيداً عن طنجة، أو فى القليل تغيير هذا الصوان بأحجار أخرى غير ضارة، ولا يسكنها سحرة، ولتأكيد الاتفاق تصافحا وقرآ الفاتحة!

ومرت أسابيع نسى فيها **سى مصطفى** قصة الأحجار المسحورة، والحدث التعس برمته، ولم يعد يطوف بذهنه إلا نادراً.

* * *

فى ليلة ربيعية جميلة رق نسيمها وصفت سماؤها دق قلب **سى مصطفى** بعنف، واشتعل رغبة واشتهى ثريا بقوة، وما من لحظة يضعف فيها سلطان الرجل أمام المرأة كما يضعف فى هذه اللحظة، وما من مناسبة يقوى فيها سلطان المرأة، إذا أحسنت استخدام أسلحتها، كما فى هذه المناسبة، ولم تدعها ثريا تفلت منها، فعادت ترجوه أن ينسى فشل الولد، وكان مضحكاً وساذجاً، وأن يكرر معه المحاولة، فقد تنجح الثانية ويحقق فيها ما لم يحققه فى الأولى:

– مبارك أنت يا سيدى، لقد أعطاك الله من المال الشىء الكثير،

وعظمت ثروتك، وهى تكفى لشراء حتى الضمائر الأكثر نقاء، حفظها الله لك، وأبعد عنها كل عين حاسدة، لا تتخلى عن ابننا . . .

كانت **ثريا** وهى تلقى بهذا الرجاء محبطة ومقهورة، ومرعوبة، ولكنها عرفت كيف تثيره رجلاً، شعرها المرسل على كتفيها تتهدل خصلات منه على وجهها، أهدابها الطويلة، عيناها الواسعتان مملوءتان بالدمع، تثبتهما فيه وهى تتكىء عليه، صوتها الناضح بالدل، يدها البضة وهى تمسح بها جبينه، أو تدلك رقبته، أو تتحسس بها على صدره . . .

ولأن سى مصطفى .

بقى حائراً للحظات، وأهمه أن إرادته تكسّرت أمام ثريا، والتهمها بنظراته، وأوشك أن يتماسك ويتراجع، ولكنها ازدادت فى نظره حلاوة، وبدت له رائعة الجمال، شديدة الإغراء، حلوة الروح، توّاقة إلى الحب كيوم أن زُفّت إليه، وبدأ يتراجع أمام إصراره فى احتيال، وهو يصيح بها :

- أشهد الله والسماء والأرض أنك طالق بالثلاثة ، طلاقاً لا رجعة فيه، إذا أنت عدت إلىّ بعد هذه المرة بأى رجاء آخر، تذكرى! هذه آخر مرة أقبل فيها وساطة منك لهذا الولد .

وللمرة الثانية أقلعت السفينة وعلى رأسها **حكمة الله** فى طريقها إلى الثروة والخطر معاً .

عندما هبط «**حكمة الله**» فى أول مرفأ حطت فيه السفينة رحالها، صادفه رجل فقير، يجلس على رصيف الشارع، يصنع أمشاطاً من قرون، فاستوقفه الأمر، وراح يتابع مهارته بإعجاب متوتر، وعندما عرف أمر المادة الأولية التى يصنع منها الأمشاط، وأن أمر هذه لا بد أن يروج فى بلده، فما من امرأة إلا وفى حاجة إليها، قرر أن يكون حاسماً، وأن يشترى كل ما صادفه من قرون، زحمت قاع السفينة وجانباً كبيراً من سطحها، وعلى يقين بأنه أمضى صفقة رابحة، سوف تدر عليه مكسباً وفيراً، ورجع إلى طنجة مسرعاً.

فى هذه المرة لم يذهب **سى مصطفى** إلى الميناء، وإنما تلقى الخبر وهو فى داره عرف بأكوام القرون التى جاء بها ابنه، فاستشاط غضباً وسخطاً، وتفجر شتائم وسباباً، فهذه القرون تملأ أسواق المدينة، وهى متفاوتة الأنواع، وفيها الكثير الذى لا يصلح لأى شىء، وهى ليست خسارة مادية فحسب، وإنما سوف تضر بسمعته، وتلحق العار بعائلته، وتلوّث شرفها، فمثله لا يتاجر فى هذه الأشياء التافهة، ولم يصبر على هذا الأمر، وإنما أسرع إلى حيث ترسو السفينة، وهو يدعو الله أن يأمر إسرافيل بأن ينفخ فى الصور، وأن تقوم القيامة، لينسى الناس فى زحامها هذه الفضيحة.

وغرق فى الحيرة!

ماذا يصنع؟ وجاءه الفرج مع **محمد الصادق** ابن أخيه وهو يسكن أرضاً بعيدة، انتهز فرصة مروره بطنجة عائداً من الحج، ليؤدى لعمه

واجب القربى، ذلك واجب يقرره الدين، وتفرضه التقاليد، تعانقا، تبادلا الذكريات، وتطرق الحديث إلى بلاهة الولد «**حكمة الله**» وحمقه، وعرض **سي مصطفى** على ابن أخيه أن يترك له إدارة أعماله، إذا كان راغباً في ذلك وقادراً عليه، على أن يقدم برهاناً جلياً على براعته وحكمته، وهذا البرهان أن يبدأ فيخلصه من هذه «القرون»، كأن يقوم ببيعها، أو استبدالها ببضاعة أخرى، أو التخلص منها بأية طريقة مشرفة وليست خسارة كلها، إنْ فعل ذلك كان دليلاً لا يخطيء على مقدرته التجارية.

وقبل **محمد الصادق**، ووعد بتنفيذ هذه الرغبة، ووافق **سي مصطفى** متردداً، فقد شك في قدرته على تنفيذ هذه الرغبة ولكن **محمد الصادق** أكّد له أنه عند وعده، وأن له من التجارب ما يجعل هذه المهمة بالنسبة له شيئاً بسيطاً، ولكن صاحب المال، التاجر المحنك، لا يثق في الآخرين بسهولة، فأغرقه بكثير من الأسئلة، أحس معها **محمد الصادق** أن عمه لا يثق فيه ثقة كاملة، واعتبر ذلك إهانة، وأن كرامته جرحت، فلم يتردد في الدفاع عن نفسه:

- أنا مسلم مثلك تماماً، وقادم من مكة المكرمة بعد أن أديت فريضة الحج، ونعمت بزيارة قبر النبي عليه الصلاة والسلام، أعود نظيفاً من الذنوب كيوم أن ولدتني أمي، وكان حجي كاملاً، حرصت على أداء الفروض والسنن، طُفتُ بالكعبة، وسعيت بين الصفا والمروة، ووقفت على عرفات، ورميت الجمرات، وشربت من ماء زمزم، قلت

لك، وأؤكد قولى: إننى سوف أبيع هذه القرون، أو أستبدلها ببضائع أخرى، والله شاهد على ما أقول.

ورد **سى مصطفى**، وما زال بين الشك واليقين:

- إذا كان هذا قرارك، وأنت مصر عليه، فإنى أدعو الله أن يوفقك ببركة سيد الكونين والدارين، وسوف أصلى لله ركعتين، لتكون ساعة رحيلك طيبة، وأن يكون النجاح من حظك.

وأبحر **محمد الصادق** إلى حيث يمكنه أن يبيع ما معه أو يستبدله، وبعد شهرين وصلت منه رسالة إلى **سيدى مصطفى** يبشره فيها بأنه خرج من الرحلة رابحاً، لم يبع القرون، ولكنه قايضها!

وابتهج **سى مصطفى**، وضاعف من مسرته أنه وصلت مع أخبار **محمد الصادق** أخبار أخرى ممتازة من أحد موظفيه، يُعْلِمه فيها بالنهاية السعيدة للمشروع الذى يتولاه، ووصلت السفينتان فى وقت واحد، وأسرع **سيدى مصطفى**، الرجل الطيب، والسعادة تغمره، وتملأ إهابه، وقبل أن يعانق ابن أخيه مرحباً ومهنئاً وشاكراً، ومقدراً لدوره فى تحريره من هذه القرون الملعونة: ويعلم الله كم كانت ثقيلة وتضغط على فكرى، ولكن ماذا أحضرت لى عوضاً عنها؟

- حجارة صوان...

ولم يكمل الجملة فقد قطع القادم الآخر الكلام عليه، معلناً فى صوت مبحوح:

- وأنا، لقد حررتك من حجارة الصوان، وأتيت لك بدلاً منها بمجموعات جميلة من القرون!

* * *

ونام **المفتى**، وتوقفت **ياسمين** قليلاً تتأمل وجهه الجميل، وفى اللحظة نفسها أدارت وجهها عنه، لكى لا تصيب العين سيدها ورب بيتها وهى تتمتم:

- أصابعى الخمسة فى العين الشمال، وأصابعى الخمسة الأخرى فى عينه اليمنى، لمن ينظر إليك بنية الأذى أو الحسد!

يالها من امرأة !

لاللاّ خديجة حزينة وأكثر من حزينة، إنها قلقة ومكتئبة؛ لأن زوجها، سيّدها، انقطعت أخباره، ولم تعد تعرف عنه شيئاً منذ اثنى عشر عاماً قمرياً، أين يستقر بك المقام فى هذه الساعة من الزمان **سيدى علال**، علال الطيب؟ أو عم علال كما اعتادت أن تناديه، لتشعره بأنه موضع الإجلال والاحترام والتقدير.

مَرَّ عامٌ، عام كامل، منذ أخذ **سى علال** طريق «تفليت»، منضماً إلى إحدى القوافل، وهى رحلة لم يعد منها بَعْدُ، ولا وصلتنا منه أخبار، ولا عرفنا عنه شيئاً من الآخرين.

وقد شغل التفكير فى أسباب هذا الصمت الواسع **لاللاّ خديجة** فأسرّت به إلى رفيقتها التى لا تكاد تفارقها الست **زهرة**، وقد رأت التوتر يستنفد صحتها، فذوى شبابها وتلاشى، كما تذوب الشموع التى ترسل بها إلى مقام سيدى إدريس، كى يشمل هذا الولى الصالح زوجها الغائب بحمايته، ويرعاه فى غيبته، ويرده إليها سليماً معافى.

وفى دعواتها كانت تغرق فى الهواجس وكأنها تسمع صوت **سيدى علال** الأبوى، يبرر لها الرحلة، لكى يُدخل الطمأنينة على نفسها، ويشيع فى داخلها الهدوء، ثم تصحو وتعود إلى ذاتها: لا تنتظرى من الرجل أن يحمل لك كنوز ملوك الحيرة أو الغساسنة، أو أن يحضر لك عبيداً بيضاً وسوداً كما يفعل كبار التجار الذين يحبون أن يسعدوا

زوجاتهم، كل هذا ليس مهماً، يكفى أن يهيىء الله له ساعة حظّ طيبة، فيخرج من الرحلة بما يكفى مئونتهم ونفقاتهم لسنوات قادمة، وهى غاية تستأهل أن يتحملا معاناة الفراق وعذاباته، والتضحية بسعادتهم كل هذه السنوات، وما فتئت هذه الخواطر تعاودها، وتذكرها بما كان، وتستعيدها بصوت مرتفع، وتتذكر معها أيضاً أنها قبلت منه أن يسافر، وأن تتحمل غياب الزوج راضية ؛ لأنه وعدها وعاهدها بأن يكتب لها رسالة مع مطلع كل شهر قمرى. ومع ذلك ظهر القمر هلالاً فى السماء اثنتى عشرة مرة، ودار الفلك دورته، واكتمل العام، ولم تصل **لاللاّ خديجة** رسالة واحدة، ولا مجرد هدية رمزية تطمئنها عليه، مما جعلها تفقد كل الآمال التى كانت تعلقها على رحلته، وبها تهدىء من كوامن قلقها، وتهدهد من موجات الغضب التى تستثيرها، وأودعت طيات نفسها شعورها الفظيع بخيبة الأمل!

* * *

وذات يوم وصلت الرسالة المنتظرة، ملفوفة جيداً فى منديل، ومحفوظة فى عمق خُرْج جمّال من فاس.

ألف مرة مرحباً بالرسالة!

وأحدثت الرسالة فى نفس **لاللاّ خديجة** بهجة غامرة، قبل أن تعرف ما فى اللّفة، وضحكت ورقصت، وشقت زغاريدها أجواء الفضاء، ولمعت الدموع في عينيها، وتسللت إلى وجنتيها، وبدأت تفتح الرسالة... مرحباً بالرسالة، ولكنها لا تستطيع أن تفك مضمون تلك

الرموز الغامضة، فخرجت إلى الباب، وأوقفت أول عابر سبيل مر بها، وطلبت منه فى أدب جم أن يقرأ لها ما هو مكتوب فيها.

هذا القارىء أعطى خديجة الانطباع الفورى بأنه عالم كبير وذو فهم عظيم، وعلى فطنة واعية، فهو يحمل لحية كثة، مرسلة ومرتبة، ويحرك رأسه فى وقار واطمئنان، ويشع من عينيه رضًا وثقة، وقد أمسك بالورقة فى سهولة ويسر واعتداد، مما زاد **لاللاّ خديجة** ثقة فيه واطمئناناً إليه، وارتياحاً وأماناً، ولم ترفع عنه عينيها، تحاول أن تستشف من مظهره ما لا تقوله شفتاه، وتبذل جهداً كبيراً كى تتحكم فى عجلتها ونفاد صبرها، بينما راح الرجل العجوز ينقّل بصره فى تؤدة بين السطور، وفجأة علت وجهه مسحة غم، وبدا مهموماً مكروباً كمن يواجه مشكلة عسيرة الحل، وأطل الندم من قسمات وجهه، وبدأت **لاللاّ خديجة** تتجسس على ملامحه، تحاول أن تفسر ما وراءها، وأن تجد مدخلاً إلى باطنه لتعرف ماذا يخفى، وقلبها يرفرف بقوة، كطائر صغير مرعوب فى قفص، وهمست إليه:

- أهناك شيء محزن؟

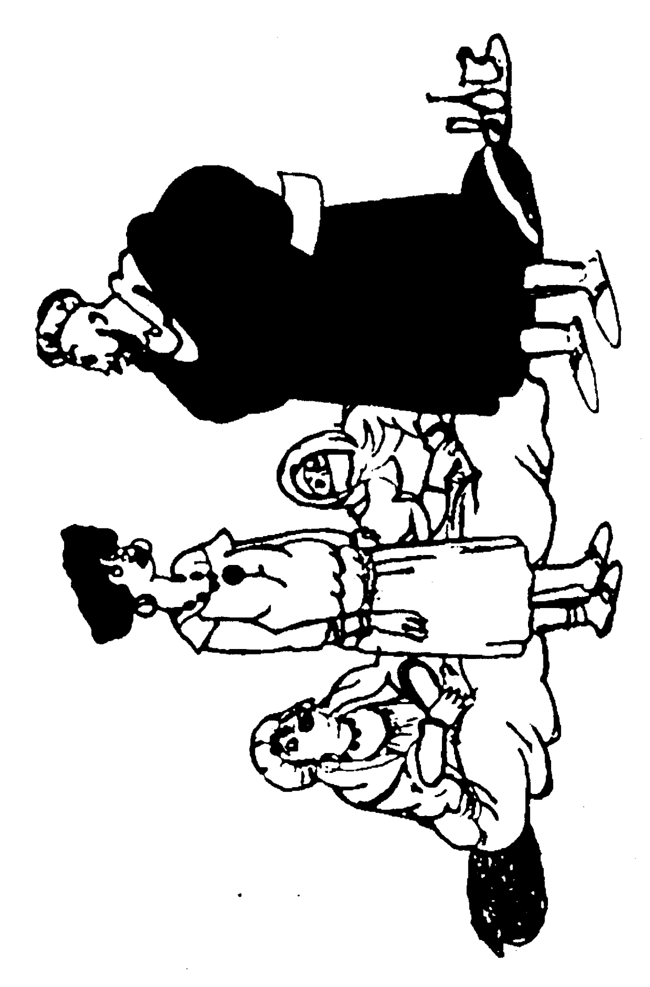
وردَّ مولانا الشيخ دون أن يرفع عينيه عن الورقة:

- محزن للغاية يا بُنيتى!

- مصيبة تستدعى البكاء؟

- نعم، ابكِ إذا شئتِ!

- إلى هذا الحد يا سيدى؟ أليس هناك علاج؟ ألا يوجد حل؟



- ليس للأمر حل، والأمر لله من قبل ومن بعد.

- هل أرتدى ملابس الحزن والحداد؟

- يمكنك أن تفعلى إذا أردت!

وغرقت المرأة المسكينة فى أحزانها ودموعها، وأثارت الجيران وأزعجتهم بصراخها ونواحها وعديدها ودعواتها، وهكذا عرفت كل القرية أن زوجها التاجر انتقل إلى رحمة الله، وبلغ الخبر السيِّئُ مسامع أخ لسى علال، فجاء مسرعاً إلى بيت زوج أخيه التى ترملت، ليعرف تفصيلات هذا الحدث المؤسف، ووجدها فى ركن من البيت، تئن وتتوجع، تشد شعرها، وتضرب صدرها، ويحيط بها جمع من جاراتها وصديقاتها المخلصات، يساعدنها ويشددن أزرها، ويخففن من وقع المصيبة عليها، ويبكين معها بأصوات عالية، وجاءت جارية سوداء إلى الأخ الزائر بالرسالة المشئومة، ما إن بدأ يلقى نظرة عليها، ويقرأ ما فيها، حتى اجتاحه الغضب دفعة واحدة، والتفت إلى **لالاّ خديجة** حانقاً:

- أيتها المرأة الجاهلة الغبية، أرعبت الجيران المسالمين، وأشعت الحزن فى الدار، لماذا تبكين وتفعلين هكذا بنفسك؟ من أين جاءك الخبر بموت أخى؟ اعلمى يا رأس المصائب أن زوجك لم يمت، وهو يقول لك فى هذه الرسالة بخط يده إنه يتمتع بصحة جيدة، وإن أموره التجارية تسير بخير، ويُعْلِمك بقرب عودته.

حلّت البهجة والسعادة والفرح في نفس **لالاّ خديجة** مكان الحزن والغم والبكاء، ولكنها بدأت تفكر في أمر قارئ الرسالة الأول جدياً، ما الذي جعل هذا الشيخ الوقور الذي زعم أنه يقرأ لها الرسالة يكذب عليها؟ وعندما هدأت أحوالها، وارتاحت نفسها، قصت على حماها ما حدث لها، فغضب بدوره، واتجه إلى هذا الشيخ الخبيث الذي اخترع هذا الخبر المشئوم، وفي قرارة نفسه أن يعيد معه اللعبة نفسها، وأن يجعله يمر بمثلها، ولأن القرية صغيرة فقد التقى به في الحال، وانضم إليهما مجموعة من الفضوليين، وكونوا فرقة غاضبة، كلهم يلوم الرجل ويحتج عليه، في أصوات مرتفعة، ويأخذون عليه بشدة تصرفه الأحمق العابث، ولكن شيئاً ما بدا غريباً، فإن الرجل العجوز لم يفقد أبداً اتزانه أو جديته رغم سيل الشتائم الموجهة إليه، وقبضات الأيدي الملوحة في الفضاء، والتي تهدد الرجل، وكل ما فعل أنه التفت إلى المرأة وقال لها:

– **لالاّ خديجة**، أنت كنت تفكرين في

أن زوجك **سي علاّل** – حماه الله – ربما يكون قد مات؛ لحظتها كنت أفكر فعلاً ومشغولاً حقاً بما هو محزن فعلاً، لكن ليس وفاة زوجك، وإنما أن رجلاً في مثل سني لا يعرف القراءة والكتابة، لحظتها أنت سألتني عما إذا كان الأمر يستدعي الحزن، فأجبتك نعم، وأنا أعني جهلي، وأنت صدّقت على هذا، وأحلف لك أنه يستحق كل ما قلت، ووافقتك عليه: الحداد ولبس السواد، فإذا ما وصلت إلى السؤال عن زوجك رددت عليك أني لا أعرف عنه شيئاً؛ لأني أخاف الله، وأكره الكذب، وأبتعد عن الشيطان لعنه الله! لم أكذب في حرف واحدٍ مما قلت! فما ذنبي؟!

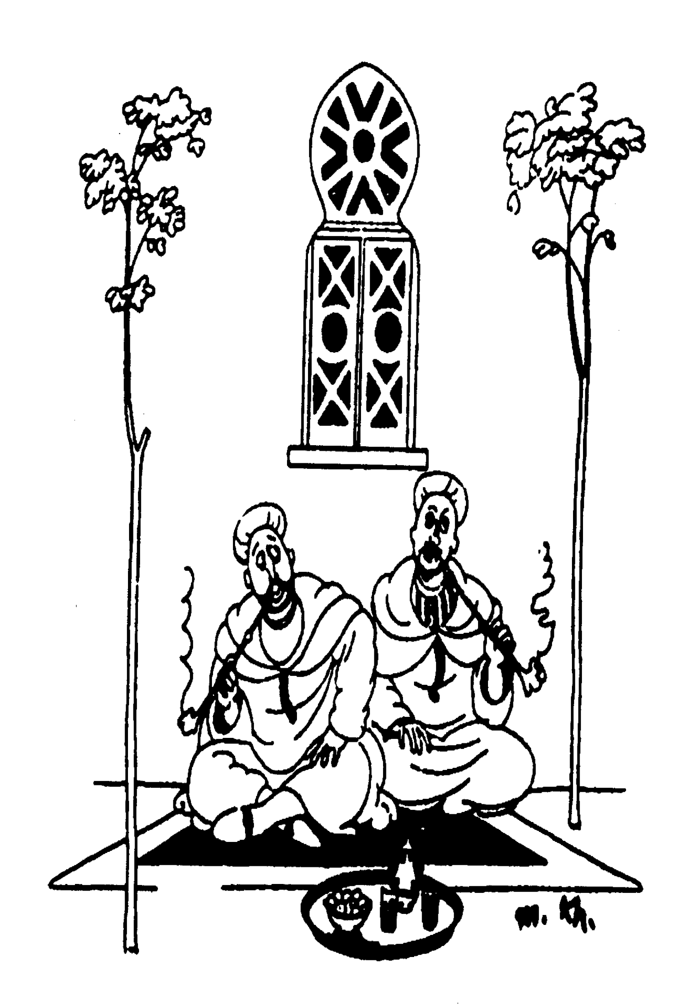
ردّ الأخ خجلاً:

– لم تكذب في شيء، ولكنها امرأة حمقاء، سامحها الله!

.. أيضًا الموتى يُساومون !

محمد وحمود صديقان حميمان لا يفترقان، كتوءم جاءت به إلى الدنيا إرادة العليّ القدير، كانا رفقة مستورة فى بطن الأم، ثم ظهرا إلى الوجود لكى يُظهرا للمتشككين والزنادقة أن قدرة الله لا يستحيل عليها شيء، وأن نواميس الطبيعة قد تتخلف، فتكون معها معجزة النبى، وكرامة الولى، وهو أمر لا يدرك المرء العادى سره بسهولة، ولا يتوصل إلى كنهه إلا من بلغ الدرجة العليا من الولاية، أو أذعن فى التسليم، فلم يعد يشك أو يناقش أو يسأل عن السبب.

حيث يكون **محمد** يمضى وراءه **حمود**، ولو تحرك الأول تبعه الثانى كما لو كان ظله، وأقوى من هذا التشابه الخارجى التوحد الداخلى، فقد تلاشيا كلاهما فى الآخر، وإذا تحركا كانت غايتهما واحدة: مقهى صغير، تحيط به الأشجار، وتطوّقه أشعة الشمس، ويتوفر فيه الحشيش الجيد فى كل وقت، يدخنان بعيداً عن الضوضاء، فينفد زيت حياتهما، وتنطفئ وهجة ذكائهما على مهل، تتسرب قليلاً قليلاً مع الدخان المتصاعد فى الهواء، تذهب به الرياح شرقاً وغرباً، فيتلاشى دون أن يخلف وراءه أى أثر، غير رائحة ذات أريج خاص، لا يدركه إلاّ الراسخون فى التحشيش، وهو أريج لا يبقى طويلاً على أية حال. ومع تبادل الجوزة يحلمان، و« الكرسى »، حيث الدخان والحشيش والنار، مثل بوتقة الكيميائى الذى كان قديماً يحوّل المعادن العادية إلى ذهب، أو المجهر، حيث تحاول العقول التى انتشت خدراً أن تتبين حقيقة


m. Kh.

الأفكار التى تدور برأسها، صغيرة جداً، مفتتة وسابحة فى الهواء، وأن تمسك بواحدة منها، تقف عندها، وتحدد معالمها، ولكنها ما إن تفعل حتى تفلت الفكرة مسرعة، متلاشية مع دخان الجوزة السابح فى الجو، وتحل مكانها أفكار أخرى، وهكذا...

انفض السامر، وتفتت مجلس المدخنين فى هدوء، لا يعكر صفوه إلا ألسنة الدخان المنبعث من الجوزة، ولكن القدر كان يدبر خفية، كعادته، أمراً لا يخطر على بال أحد حتى لو كان حشّاشاً، لقد فكر **محمد** فى أمر عبثى، أو قل نكتة غير متصورة، فطلب من **حمود** قرضاً قيمته مليمان، وهو أمر رآه **حمود** سلوكاً شاذاً، ينافى كل الأعراف، فلا صحبة الحشيش ولا الصداقة ولا التوءمة يمكن أن تبرر هذه الحماقة، التى تصل حد الجنون، وقد شحب وجهه، وزاغت عيناه، وتصبب عرقاً، وشعر بطعم العلقم والحنظل يسد حلقه، ورأى فى الخروج إلى الحديقة تخلصاً من حصار هذه الأفكار، ولكن لم يخفف من وقعها عليه النسائم الهادئة المنعشة تصافح جبهته، ولا أشعة الشمس الجميلة قد اكتست لون الذهب وهى تتأهب للرحيل هروباً من الدنيا الشريرة كى تعود إلى خالقها، وغرقت الحديقة فى ظلام المساء، كما غرق **حمود** فى طوفان كاسح من أمر المليمين، ثم استجمع أمره، واتخذ قراره النهائى: أن يذهب إلى دار **محمد**.

...

طرق الباب مرتين بقوة كافية حتى يوقظ **محمداً** ووالده الشيخ الطيب، وقد نالت منه السنون، ولكن حديثه يتسم بالحكمة وفيه خير.

وجاء من الداخل صوت امرأة :

– من الطارق ؟

– قولى لى : هل سيدك **محمد** موجود ؟

– نعم .

– أبلغيه أن **حموداً** يريد أن يراه .

أحس **محمد** بالضياع وهو يتسمع هذا الحوار، فلا شك أن صاحبه جاء يطلب قرضه، فكيف يضلله ويفلت منه؟. إن الموت وحده هو الملاذ الأمين من هذه الكارثة التى حلّت به على غير موعد. الموت؟ حين نطق بهذه الكلمة لم يكن يريد معناها الحقيقى طبعاً، ولكن فى مفهومها المجازى. أما الآن فيبدو له أن الموت وحده، فى صورة ما، هو طريقه الوحيد للخروج من هذه الورطة، ولكن.. كيف؟ بسرعة فائقة قرر أن يتظاهر بالموت، وتمدد على الأرض، وطلب من زوجه أن تربط ساقيه ويديه حتى لا تبدو منه أى حركة، فتنكشف الخدعة، وغطى وجهه بقماش أبيض، وجسمه بملاءة كاسية، وصاحت المرأة بحمود وهو وراء الباب :

– سيدى، نسيت أن أقول لك إن **محمداً** هنا، ولكنه مسجى على الأرض ميتاً!

لم يكن **حمود** غبياً إلى هذا الحد، أو أحمق حتى يصدق زوج أخيه فلا يشم رائحة الحيلة، وقرر أن يقابلها بحيلة مثلها، فتظاهر بالجزع الشديد، وانفجر باكياً، وأجرى الدموع من عينيه غزيرة وهو

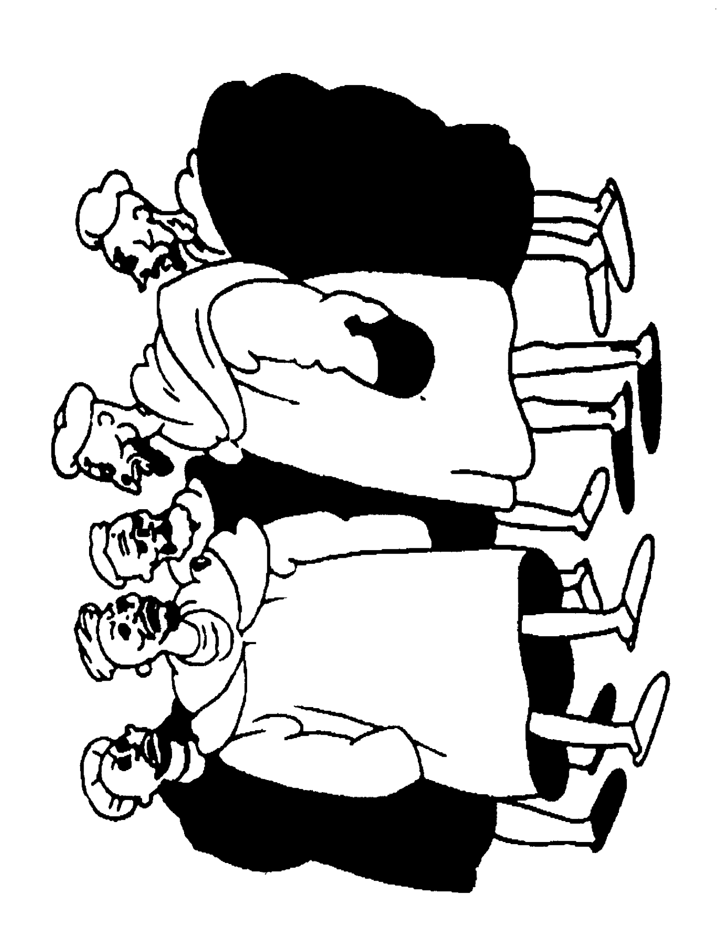
يردد: لا، لن أبرح الدار قبل أن أرى جثة أخى، وأقرأ الفاتحة على روحه، وأدعو له بالمغفرة، وحلف بالله، وبالمصحف والبخارى أن يتبع جنازة المرحوم حتى يوارى التراب، وزاد (فى نفسه) أو حتى جهنم إن كان مات حقاً!

وأفسحت له نساء الدار الطريق إلى الجثمان المسجى، وقد اختفين فى غرفة أخرى، وأسرع **حمود** إلى حيث يرقد أخوه، وما إن رآه حتى أرسل صرخة عالية وسقط مغشياً عليه، وتمدد إلى جواره متظاهراً بالموت أيضاً!

وخرج النساء من غرفتهن مذعورات، ورحن يبكين ويصرخن ويولولن بأصوات عالية، وبلغ صراخهن بقية الجيران، وسرى الخبر فى الحى، وغزت الدار سحابة من الفقهاء، على رأسهم الإمام والمفتى وآخرون من مختلف طبقات العلماء، وأسرعوا فى إتمام متطلبات الجنازة؛ التغسيل والتكفين، ووضعوا الجثتين فى النعش، وساروا بها إلى الجبانة، وهم يرددون خلفها: لا إله إلا الله، محمد رسول الله.

ثم وصلوا إلى الدار الآخرة وإن شئت إلى ما قبلها، كما سترى إن كنت سمعت الحكاية (أو قرأتها) إلى آخرها.

فى الجبانة كان القبر مفتوحاً ومعداً لاستقبال جثتى الأخوين اللذين لا ينفصلان فى الحياة والموت، وهم يتهيئون لإنزال الجثتين المقبرة، تأملهما أحد الأولياء، وكان يردد بعض آى الذكر الحكيم، وفجأة توقف، واتجه إلى جمع الحاضرين، وبدأ يوبخهم:



- يا لكم من فقهاء جهلة ومزيفين ومنافقين، كيف تدفنون دون أدنى شك اثنين من الحشاشين على أنهم موتى، يبدو أنكم تجهلون - لسوء الحظ - أن هذا المخدر الضار اللعين، فضلاً عن تدميره الصحة، وخلايا المخ، كثيراً ما يذهب بمدخنيه فى سبات عميق، لبعض الوقت، فيأخذون كل مظاهر الموتى؟ ولعلهم فى هذه اللحظة يعودون إلى الحياة فيلعنونكم، لأنكم تدفعون بهم إلى الدار الآخرة قبل يومهم المقدَّر، وتدمرون خَلْق الله من حيث لا تعلمون، وتزهقون أرواحهم وهم أحياء يتنفسون.

كانت حيرة المشيعين إزاء الموقف بالغة، وأحسوا بالحرج الشديد، واختلط عليهم الأمر: ماذا يصنعون؟ الجثتان أمامهم لا تتحركان، ولكنهم لا يعرفون من أمر الحشيش ومدمنيه شيئاً، وبدءوا يتسربون فرادى، وتركوا الجثتين المشكوك فى أمرهما فى الهواء الطلق، على أن يعودوا فى اليوم التالى لتبيُّن حقيقة الأمر، وطلبوا من حارس المسجد أن يرقب الأمر، ويخبرهم بالذى سوف يحدث، وسوف يجمعون رأيهم فى ضوء ما يعلمهم به.

كان الجو بارداً وممطراً، والحارس حائر لا يفهم من الأمر شيئاً، وزاهد فى كل ما يرى ويسمع، رأى كثيراً من كرامات الأولياء والصالحين وهم يُدفَنون، واحتفظ بها لنفسه لا يرويها لأحد، ربما لأن الناس لا يصدقونه، فهى معجزات لا يقبلها العقل، وغير مفهومة إذا قيست بمنطق غير الصالحين. وسأل نفسه: هل صاحبا الجثتين من الناس الطيبين؟ فيظل جسماهما نديين طريين، ووجهاهما مشرقين مضيئين،

ورائحتهما عطرة ذكية، أم أنهما من القوم الفاسقين، فيشيع منهما العفن الذى يزكم الأنوف، ويجعل المرء يكره الحياة والأحياء؟ مهما كان أمرهما فهو فى حاجة شديدة إلى شىء من النوم، لقد سهر بما فيه الكفاية لكى يراقب الأحياء، ويحرس الأموات، وهذا واجبه، ولكن الراحة مطلوبة أيضاً، وهكذا قرر أن يغفو فى غرفته لعدة ساعات.

كان الليل قد انتصف عندما اجتاز باب الجبانة جماعةٌ من اللصوص؛ فقد رأوها المكان الأمثل لكى يجلسوا فى أمان واطمئنان، ويقتسموا ما نهبوا من القوافل، وسطوا عليه فى القصور والأسواق، دون أن يزعجهم أحد؛ فالناس يهابون المقابر، وبخاصة فى الليل، ويرونها مجمع الأرواح الشريرة والخيرة، وملتقى الملائكة والشياطين. وبدءوا فى توزيع الأسلاب:

أحصوا النقود والجواهر والذهب، وقدّروا قيمة الأعراض الأخرى، وجرت الأمور فى يسر؛ فهم رفقاء محترفون ومحنكون ونادراً ما يختلفون، وبدءوا بالأموال، وتركوا ما يتطلب الفكر، أو يقع عليه خلاف إلى نهاية المطاف.

على مقربة منهما كان **حمود** يدعك عينيه، ويحاول فتحهما، ولحظ فى دهشة أن أخاه **محمداً** أخذ يتحرك، فهمس فى أذنه:

– صه، ويحك، لا تحدث ضجيجاً؛ فقد نخرج بشىء مما يجرى على مقربة منا.

وفى هدوء شديد بدآ يزحفان داخل أكفانهما العريضة الواسعة إلى

مـا تصـوراه عـفـاريت . ونظر اللصـوص فـإذا بأكـفـان بيـضـاء ترتفع وتنخفض، وتزحف نحوهم فى بطء، فأصابهم الخوف والهلع، وارتفع صوتهم بالدعاء، والاستنجاد بكل الأولياء والصالحين، القدامى منهم والمعاصرين، وكل ما أمدتهم به ذواكرهم على امتداد تاريخ المسلمين. فلا بد أن بطلاً منهم سوف يمد إليهم يد المساعدة، وينقذهم من محنتهم الشديدة، وأنهم لن يعودوا لمثلها أبدا إذا رجعوا إلى بيوتهم سالمين!

ولم يبطىء الأخوان، فتحركا بسرعة، وبكل ما لديهما من قوة، ليصيبا حظهما من الغنيمة، وحملاه فى كيسين، ثم شغلا بها، تقسيماً وجدلاً وفصالاً ومساومة و« خذ وهات »، ولحظ اللصوص أن هذه الأرواح التى بعثت وتحركت وتبعتهم غير مؤذية، أو فى القليل ليست بذات خطر، فأخذوا يقتربون منها فى خطى ذئب حذر، وهم يتساءلون فيما بينهم: هل يكون البعث فى الآخرة على هذا المنوال؟ ولكن وشوشة هامسة بدأت تبلغ أسماعهم، فأعطوها آذانهم، وأثارت فيهم من جديد شيئاً من القلق، وشلت حركتهم، واستطاعوا أن يلتقطوا من خلالها حواراً يجرى بينهما وهما يخرجان من المقبرة:

- اسمع يا **محمد**، والمليمان؟

وانفجر الآخر فى ضحكة هزت كل جسمه، حتى كاد الكيس الذى كان يحمله أن يسقط منه على الأرض:

- **حمود**، يا رجل يا طيب، بحق الله، وحق رسوله عليه الصلاة

والسلام أنت تثير فيّ الضحك أحياناً، مع هذه الثروة التى هبطت عليك أنت تفكر فى مليمين، فهل هى خيبة منك، أو نكتة سخيفة؟

– ليست خيبة ولا نكتة، والأمر جد، تأكد من هذا تماماً، هل تؤمن بالقرآن العظيم الذى أنزله الله على رسولنا الكريم؟

– ليس فى ذلك أدنى شك.

– إذن أحلفُ بالمصحف أنه بدون حل مشكلة المليمين لن نتحرك من هنا!

– أخى وصديقى حمود إذا كنت تتحدث جاداً فأعدك بأننى سوف أعطيهما لك غداً.

– لا، لا.. من الأفضل عندما يهل علينا الصباح، وتشرق شمس الله على الجميع أن تكون قد وفيت لى دَيْنى.

– يا رجل يا طيب، أمهلنى على الأقل حتى أبيع بعض هذه القطع الذهبية.

– أنت تماطل، لا شىء من هذا، أريد المليمين الآن، وفوراً...

كان اللصوص يتسمعون فى دهشة إلى هذا الحوار الذى يدور بين الجثتين، وينتظرون بفارغ الصبر معرفة ما سينتهى إليه الأمر، وحمود يؤكد على مطلبه بقوة:

- مليماى أولاً، لن أتحرك بدونهما من هنا!

وفجأة انتصب رئيس العصابة واقفاً، واتجه إلى أتباعه يخاطبهم بصوت خفيض:

- أعتقد يا أبنائى أن حركة الموتى الذين أمامنا ليست خيالاً ولا وهماً ولا حلماً، وأنهم نهضوا من قبورهم فى هذا العدد الذى نراه، وفى تقسيم الغنائم التى تركناها لهم لم يصب كل جثة إلا مليمين، وأن حمودا يريد أكثر من حقه، أو أن الآخرين ينازعونه فيهما. وكما ترون فإن الموتى يساومون أيضاً!

سلّفني خمس ريال

– اشتمنى إذن!

– **سيدى بوستة**، أنت لطيف والله.

– ليست مسألة لطف يا صاحبى، ولكنه شرط ضرورى، واجب النفاذ، لكى أحقّق لك ما تريد.

– ولكن، سيدى، أنا لست كافراً بالله، ولا أتصرف على هذا النحو السيئ أبداً، وكل ما أطلبه منك أن تسلّفنى خمسة ريال، لأن الحاجة تدق على بابى بقوة، وفى تكرار، خبطات قوية صاخبة، وأثق فى كرمك الذى جعل منك نداً لحاتم الطائى، وأنك سوف تنقذنى من الورطة الخطيرة التى انزلقت إليها، وهكذا يرحم الله والديك، ويشملهما بمغفرته ورضوانه.

– لا تكن حروناً، ذلك منك ظرف بغّال لا ظرف إنسان طيب، رغباتك سوف أضعها فوق رأسى، وأحملها بين أهداب عينى. والريالات الخمسة هى فى كيس نقودى، ولن تنتظر حتى تطلبها، وإنما سوف تسرع إليك قبل طلبها، وإذا لم يحدث هذا الآن فإنى أحلف بدينى، بدين سيدنا محمد ﷺ، أنك لن تراها طول حياتك. اشتمنى، سُبّنى أنا وأهلى، ومن أعرف، ولنترك هذه التوافه والترّهات.

– سبحان الله!.. كم أنت غريب الأطوار، **سيدى بوستة**.

– أنا حلفت .

– ولكن كيف أشتمك، أو أذكرك بالسوء وأنا أنتظر النجدة منك، وإنقاذى سوف يكون على يديك، وأحب فيك هدايتك وصلاحك واستقامتك التى بلا حدود؟ .

– أراهنك، على أن تفعل ما أمرتك به، وإلاّ فأنا مصمم على أن تعود هذه الدنانير إلى بيتى، دون أن تصيب منها شيئًا .

– لا بحق الله!، أستحلفك بدينك، وبرسولك، وبالمصحف الشريف .

– إذن اشتمنى، والعنّى، قل عنّى كل سوء، غطّنى بالعار، ولفنى فى الشنار،و وأغرقنى فى الخزى والصغار .

وأدرك طالب السلفة اللحوح إنه يوشك أن يخسر القضية، فالتزم جانب الطاعة على استحياء، وبدأ يسب **سيدى بوستة** :

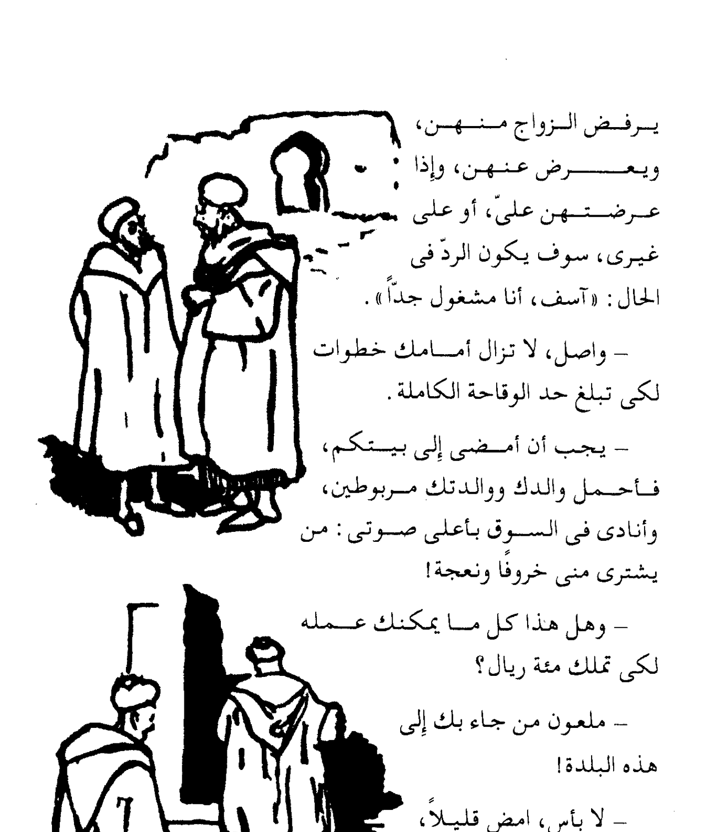
– ما أنت إلا ابن شوارع، ولعلك ولدت على قارعة الطريق .

– واصل حديثك جاداً وفى هدوء .

– وأبناؤك نصراء العدو وعملاؤه .

– لقد بذلت لى كثيراً من الضراعة والطراوة لكى تملأ كيسك من دراهمى، وأنا إلى الشتائم أحوج .

– وبناتك قبيحات جداً، قصيرات القامة، ضيقات العيون، ممتلئات النهود، بشرتهن جافة مهترئة، وشعرهن أكرت قصير، حتى ابن آوى



يرفض الزواج منهن، ويعرض عنهن، وإذا عرضتهن عليّ، أو على غيرى، سوف يكون الردّ فى الحال: «آسف، أنا مشغول جداً».

– واصل، لا تزال أمامك خطوات لكى تبلغ حد الوقاحة الكاملة.

– يجب أن أمضى إلى بيتكم، فأحمل والدك ووالدتك مربوطين، وأنادى فى السوق بأعلى صوتى: من يشترى منى خروفًا ونعجة!

– وهل هذا كل ما يمكنك عمله لكى تملك مئة ريال؟

– ملعون من جاء بك إلى هذه البلدة!

– لا بأس، امض قليلاً، شد الأوتار، وزن الأمور أفضل.

– لعن الله مصارين الأب، مصارين أبيك الكلب.

وابتسم **سيدى بوستة**، وهو يهز رأسه مستمتعًا بما يسمع، وارتسمت على شفتيه ابتسامة عريضة، على حين انفعل محدثه وواصل كلامه متحمساً:

– وهكذا ضاع أصلك، فأنت لا حسب لك ولا نسب، ولا مكانة.

– حسنًا واصل..

– يعطيك الله ما أعطى الحمار: حدوة ورسنا.

– تأكد تمامًا أنك لم تنجح فى تحقيق رغبتى، وإنجاز ما طلبت منك على الوجه الأكمل.

– كيف، وأنا لم أنته بعد؟، هكذا أنت، صاحب حيلة طول حياتك، وتعرف كيف تنفذ من ثقب الإبرة، ويبدو لك واسعًا.

– ها أنت تقترب من الغاية ..

– ليس بكثير على الله أن يصيبك بحمى، لا تعرق معها، فلا تشفى منها أبداً.

– ثم ماذا؟

– ترى كيف أن البخار، مع ماء بين الضلوع، يصبح فى القلب ناراً.

– تمام، بالضبط، ذلك ما أريد، ويسرنى.

حينئذ لمعت عينا السائل، صاحب المصلحة الأولى فى إرضاء **بوستة**، وأطلت منهما متعة حقيقية صاخبة، ومد يده مرتعشة نهمة،

حريصة على أن تتلقى المال المطلوب، ولكن بوستة أوقفها فى لطف، وهو يقول:

– يا بنى، أنت تعرف جيداً أن أى صفقة يجب أن ينظر فيها إلى فائدة الطرفين. قل لى: ما الذى سوف أجنيه من هذا القرض؟ أعطيه لك بالفائدة؟ لا يمكن؛ لأنها محرمة قطعًا بنص القرآن الكريم، يقول الله تبارك وتعالى: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿**وأحل الله البيع وحرم الربا**﴾. ربما عرفانًا منك، سوف تقدم لى عند ردّ المبلغ مسبحة، هدية منك، ومعها سلسلة من الشتائم، ترددها فى سرك، مع كل قطعة نقود سوف تردها إلىّ. هذه هى الفائدة الوحيدة المؤكدة. وبما أننى كائن إنسانى، عاقل وناضج، وصاحب خبرة، أعرف ما يجرى، وأتوقع ما سوف يحدث، فقد اخترت أن أقبض هذه الفائدة مقدمًا، ومن ثم فليس مهما أن نمضى بهذه الصفقة إلى الأمام.

* * *

وفى جدية واضحة، حمل **سيدى بوستة** كيسه، ومضى بأمواله، وحمل فى هدوء سجادته الصغيرة الحمراء التى اعتاد أن يصلى عليها تحت إبطه، ودون أن يعير أى شىء اهتمامًا مضى نحو الباب، وفى لطف سلك طريقه نحو المسجد المجاور، ليأخذ مكانه المعتاد عند العمود، قريباً من المحراب.

حدآء السُلطان

الحاج جيلالى حلاّق السلطان زهرة طائفته، وقمتها، ومرآة نبوغها، لا يستطيع أحد أن يساويه أو يدانيه فى حرفته، بل أن يعلو عليه فى فنون كثيرة متنوعة أجادها ومهر فيها: خير من يصنع من القماش الناصع البياض، الرقيق النسيج، الناعم الملمس، من الحرير اليمانى الغالى الثمن، عمامةً ملكية وقورة، مجيدة مهيبة، قليلة النظير.

وهو وحده -ولا أحد غيره- يستطيع فى أشهر الصيف القائظ، أن يفصد زبائنه فى مهارة الطبيب الحاذق، وبراعة الحلاق المتمكّن، وليس فى السلطنة من يستطيع مثله تشذيب لحى زعماء البربر وشيوخهم وقوادهم وأبطالهم وتهذيب شواربهم، فى خفّة وبراعة وفن، وينهضون من بين يديه، وقد أضاءت وجوههم، ولمعت جباههم، وتوردت وجناتهم، وسرت فى دمائهم روح الشباب، أما حين يأخذ بين يديه رأس السلطان -حرسه الله- فحدِّث عن ذلك ولا حرج، . إنه الحلاق الوحيد القادر على أن يترك الرأس الملكى عاريا من الشعر تماماً، يبدو تحت أشعة الشمس كقرعة غسلها وابل من طل!

الحق أن **الحاج جيلالى** كان فريدا فى حرفته هذه، ولا يدانيه فى إجادتها أحد، على امتداد السلطنة كلها!، وإلى جانب روعته حلاقاً تميّز أيضا فيما يتصل بها من مهن أخرى، فكان فردا فى إعذار الأطفال ماهرا، خفيف اليد، حاد الموسى، له طريقة عرف بها وتنسب إليه،

تعلّمها من يهود المدينة، وتفوق عليهم فيها، ووجدت من الآباء قبولا منهم، معه مطمئنون على سلامة أبنائهم، واثقون من صحة بتره، ودقة جرحه، ولم يكن **الحاج جيلالى** يجهل قدر نفسه، وبراعة تمكّنه، وسعة علمه، وضل التواضع طريقه إليه، فهو لا يمنح هذا الشرف إلا للسلطان وعائلته وحاشيته ومحبيه، ومن يوصى بهم ويتوسط لهم، وأبناء قلة من علية القوم فى المدينة، وأما أبناء الآخرين من عامة الناس وأشباههم فلهم الله!

وعُرف **الحاج جيلالى** بأنه طبيب أسنان، ولم تكن شهرته وأستاذيته وتمكنه فى هذا الجانب بأقل مما عُرف عنه جرّاحا فذا متخصصا فى عمليات الختان، وهو يخلع الأضراس والأسنان والأنياب، التى تآكلت، أو أصابها السوس، أو انتفخت بسببها اللثة، وطريقته فى العلاج: يسند ظهر ضحيته إلى جدار دكانه، ويثبّت ركبتيه فى صدره، فلا يستطيع حراكا، ويأمره بإغماض عينيه، وفتح فمه بأوسع ما يستطيع، ويثبّت فكّى الكماشة فى جذر ما يريد خلعه، ضرسا أو نابا أو سنة، وبكل قوته يشدها إلى أعلى، ترتفع فى ثوان بما يريد خلعه، وقبل أن يصرخ المريض بأول آهة أو صرخة يكون كل شىء قد انتهى، ويقدم له كوبا من الماء الساخن، وقد أذاب فيه شىء من الملح، ويطلب منه أن يتمضمض عدة مرات، فإذا لم يتوقف نزيف الدم المتدفق من لثته، حشا الجرح بقليل من البن، وفى هذا الجانب يحمد الناس للحاج جيلالى قناعته، ويضربون لذلك المثل، بأنه إذا أخطأ، وقليلا ما يخطىء، وخلع ضرسا صحيحا بدل المعطوب، أصلح خطأه، واقتلع المعطوب أيضا، ولم يتقاض أجراً إلاّ عن واحد فحسب!

وإلى جـانب هذه المهن التى شُهر بهـا، ويعـرفـهـا كل الناس، ويقدرونها حق قدرها، وتفتح أمام صاحبها أبواب القصر السلطانى، وتجعله قريبا من صاحبه، ومن علية القوم، ينسب إليه العامة قدرات أخرى، يردون إليها المكانة التى يتمتع بها، والنفوذ الذى يمارسه، يتهامسون بها سراً، ولا يجرءون على الجهر بها، وكل واحد يرويها حسب ما يجرى به خياله، فهو فيما يروون يعالج غياب الرجولة، ونقص الفحولة، وضعف الهمة، ويجعل من الكهل شابا فتيا، ولديه ألوان من العنبر الهندى، والمراهم التركية، والأعشاب الجبلية، لا تخطر على بال أحد، إلى وصفات أخرى قرأ عنها فى العلم القديم، وحدّثه عنها من يسخرون الجان ويمارسون السحر، ويكتبون الأحجبة.

والحق أن **الحاج جيلالى** سمع شيئا عن هذا كله، ولكنه فى قرارة نفسه يعرف حجم ما يجيد، وأن قدراته ليست بشىء فلم يؤكد ما يقال، ولم ينفه أيضًا، تاركا سائله يقع فى وهم أنه يسأل عن سر خطير، ويقترب من أمر جليل، ويوشك أن يقع فى محظور يفتح عليه أبواباً من الشر ليس لها آخر.

وفى النهاية، وقد رأى الناس يسرفون فى احترامه وإجلاله، ورم أنفه، وانتفخت أوداجه، وداخله الكِبْر والزهو، وامتلأ عجبا وخيلاء، وأصبح على حافة الإيمان بأنه أعظم رجل فى المملكة بعد السلطان، فبدأ فى تصرفاته وسلوكه يتجاوز حدوده وقدره، وما هو طبيعى وعادى، وعاد تكبره نزقا، وأحلامه هوسا، وأوشكت طموحاته أن تصبح جنونا، وتبلغ أشدها حين تكون رأس سيّده السلطان بين يديه، يحلق رأسه، أو يسوّى لحيته، أو يشذّب شاربه.

توقف فجأة، وأمال رأس السلطان إلى الخلف بقوة، دون لطف أو رقة، فبدت عظام الترقوة، وانتفخت أوداج الرقبة، وبرزت عروقها، وأخذ يسن الموسى فى حدة واندفاع، بصوت مسموع، وفى إشارات لا تخطئها العين ولا الفكر، ونظرات غاضبة مصممة، تقدح شررا، لا تخفى معانيها على الفَطِن اللبيب.. ولحظتها توجه بالكلام إلى السلطان:

– سيدى ومولاى، لماذا يجب على الذين فى بلاطك أن يتوجهوا دائما إلى الله بالحمد على ما أفاء عليهم من نعمه، بأن جعلهم خدمك، يسهرون على راحتك وأمنك، وأن يلهجوا صباحَ مساءَ بالدعاء لك، شاكرين ومقدرين، رغم الظلم الذى يحيط بهم، ويعيشون فيه، ويعجزون حتى عن الصراخ والألم، أو الشكوى مما يلحق بهم من ضيم وحيف،



وإنكار لمواهبـــهم؟ ألا ترى أن من الصـــالح العـــام لكم ولهم، أن يتـصـفـوا بالصـراحـة والشـجـاعـة، وأن تتـسـمـوا بالعـدل والرحـمـة فيحملون إليك مظالمهم وتنصفهم!

– هل تعرف أحدا فى قصرى مظلوما؟

– أنا أوّلهم

كان حديث **الحاج جيلالى** مفاجأة، ورأى السلطان فى كلام حلاقه، وطريقة حديثه إهانة كبرى يجب أن يدفع ثمنها غالياً، وفى لحظة قاس المسافة بين الموسى الحادة ورقبته فوجدها قصيرة جدا، وأى تهوّر فى الرد أو خطأ فى الحركة، قد يودى بحياته فى ثوان، وينتهى به إلى الدار الآخرة، ولا يُجدى بعدها فى شىء أن يحكموا على حلاقه بالإعدام شنقا، أو على خازوق!

كبح السلطان كل مشاعر الغضب فى أعماقه، وأخفى بقوة وجهد ما سرى من توتّر فى أعصابه، وأعانه على ذلك موجة برد خفيف انبعثت من داخله، وامتدت عبر عروقه ووأدت حبات العرق الناضح على وجهه فى مهدها، واستجمع كل قواه، وعصارة تجاربه، ليكون هادئا، ويواجه الأمر بعقل بارد، ولم يعر شتائم الحلاق وسبابه اهتماما، وإنما رد عليه فى صوت ناعمٍ حنون:

– بنىَّ! القضاة والفقهاء والعلماء والمفتون فى المملكة يحبونك ويوقّرونك، وفيما يتصل بى قررت اليوم بالدقة أن أزيد راتبك، وأن أمنحك بيتا واسعا مريحا تحفه حديقة، وأن تتقدم رتبتك درجات،

فيصبح لك حق حضور مجلسى على قدم المساواة مع كل من ذكرت لك. ماذا تريد إذن؟!

– كل ذلك طيب يا سيدّى، وليكن الأمر كما تقول، ومع ذلك فأنا ضحية ظلم خطير.

– أىّ ظلم؟

– ألا ترى أننى أحق من وزيرك الأول بأن أكون يدك اليمنى فى حكم المملكة؟ أنا خير منه وأجدى، هل يستطيع هو أن يكون مثلى: يلفّ عمامتك فى مهارة، ويحلق رأسك فى نعومة، ويهذب لحيتك فى أناقة، ويشذب شواربك فى خفة، ويفصدك فى مهارة، فيتدفق الدم إلى مخك فى سلاسة؟ إن من له مثل هذه المواهب يستطيع أن يعينك على هزيمة الكفار، وإصلاح الاقتصاد، وحماية السلطنة من الإفلاس، ومن جانب آخر لدىّ القدرة عند الضرورة، أن أشيع بين الرعية روح السخط، وأن أبث فيهم الدعوة إلى التمرد، فما أحوجك إلى رضاى ومواهبى، وما أغناك عن سخطى وكراهيتى ومؤامراتى، وأكثر من ذلك كله أستطيع أن أؤكد لك، دون مداورة أو مناورة أو مداراة، أن رأسك بين يدىَّ، وأن هفّة من موساى الحاد... آه!

قالها وصمت.

وكان صمته أبلغ من أى كلام!

ثم مضى فى كلامه:

على أية حال لا أعتقد أن الوزير الأول سوف يغضب من هذا الأمر، وسوف يسلّم بالأمر الواقع؛ لأنه يعرف ويعترف بقدراتى ومواهبى وكفاءتى.

– لا عليك منه، فأنت أفضل وأعظم، أعترف لك بهذا، وإذا قلتها أنا فما أهمية رأى غيرى، كنت أومن بهذا، وأنت أول من أقولها له، وعليك أن تعى هذا، وأن تثق فى قولى هذا. إنك عندى أعظم وأكفأ من وزيرى الأول!

– إذن، لماذا لا تزوجنى ابنتك؟

وارتجف السلطان لهذه الإهانة السوداء من حلاّقه، وأخذ يهدهد من روع نفسه ويردّد فى سره الآية الكريمة: «والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس، والله يحب المحسنين»، ويزداد لها ترديدا فى سرّه كلما تحركت يد حلاّقه بالموسى، ولمع بريقها بين عينيه.

وردّ فى تواضع ورقة:

– ولكنك لم تطلب يدها أبدا.

وانفرجت شفتا **الحاج جيلالى** عن ابتسامة عريضة عفوية وهو يسمع رد السلطان، ولكن تواضع هذا وحلمه وثباته ردّ الحلاق إلى صوابه، فأدرك من هو؟ وما قيمته؟ وعندما بدأ يفكّر فى الأمر أدرك فداحة الجرم الذى ارتكبه، والعقاب الصارم الذى ينتظره، والنهاية السيئة التى تقترب منه، وعليه أن يتوقعها بين آونة وأخرى، متى أنهى حلاقته، ووقف السلطان على قدميه، وأفلت من بين يديه، ورأى

النجاة فى الأمان يأخذه لنفسه، فالملوك لا ينكثون بعهودهم، ولا ينقضون مواثيقهم، فأمسك باللحية الملكية، وقال لصاحبها، وهو يستعرض الموسى أمامه:

– احلف لى يا صاحب الجلالة بحق لحيتك الموقرة هذه أنك لن تنتقم منى عندما تفارقنى، وتصبح محاطا بقوادك وجنودك وحرسك وحاشيتك.

– أحلف لك!

انصرف **الحاج جيلالى** تتعاوره مشاعره متضاربة من الخوف والأمل، والترقّب والحذر، لا يستطيع لها دفعا ولا منها مهربا، وفى نهاية الأمر هرب من كل الكوابيس بأن سلّم أمره إلى الله، ورفع وجهه إلى السماء ضارعاً: يا خالق الكون، وناصر الضعفاء، إنى لا أسألك ردّ القضاء ولكن أسألك اللطف فيه.

أمّا السلطان فلم يغمض له جفن من هذه اللحظة، ولم يطب له عيش، وشاغله الأوحد، ليله ونهاره، صباحه ومساءه، كيف ينتقم من الإهانة المرة التى ألحقها به حلاّقه الحاج جيلالى، ولم يتعرض لمثلها من قبل، لا هو ولا أحد من أسرته السلطانية، إنه يريد أن ينتقم دون أن يحنث فى يمينه، أو يخلف وعده، فلا أسوأ من أن يشيع بين الرعية أن حاكمها غادر أو قاس، أو مداج أو كذّاب، لا يحترم كلمته، وانتظار أن يقع **الحاج جيلالى** فى خطأ يحمله إلى القضاء بعيد، فهو قوى المكر، كثير الحيل، شديد الحذر.

ومرض السلطان من كثرة التفكير فى الإهانة، وشدة وقعها عليه، والإحساس الأليم بوخزها، وعجزه عن الانتقام بقرار شخصى يصدره، غير مبرر ولا مقبول من رعيته، وعاد يستجمع فكره وتجاربه وحيله، ويلح على ذكرياته، بحثا عن نصيحة سبق أن بثها إليه حلاقه من قبل، ولم تحقق غايتها، فتكون مبررا لغضبه، فوجد أعماله كلها خيرا..

***

ذات يوم، وهو وحده فى مجلسه بلغت منه الرغبة فى الانتقام غايتها، واجتاحت داخله عواصف عتية، تدفعه إلى الثأر والانتقام دفعا، ولم يهدأ له مجلس، فأخذ يتمشى فى البهو السلطانى، وهو يصرخ كأنما فقد عقله: لا، وألف لا.. إن إهانة السلطان لا تنسى، ويجب ألا تمر دون عقاب مهما كانت النتائج.

ودخل عليه كبير الحجّاب:

– مولاى، الوزراء والقضاة والفقهاء والعدول وأرباب الحل والعقد فى المملكة بالباب ينتظرون إذنا بالدخول لأمر هام جدا وعاجل.

– ماذا يريدون؟

– ليس من حقى أن أسألهم.

– أعرف، ولكن من غير أن تسأل: كيف رأيتهم، وعهدى بك الفطنة والذكاء؟

– مذعورين يتصببون عرقا، وأحسب أن أمرا خطيرا جاء بهم فى هذه الساعة، على هذا النحو!

– إذن دعهم يدخلون.

وتدافع الوزراء والقضاة والفقهاء والمفتون والعدول وكبار رجال الدولة، وهم يتصايحون بصوت مرتفع:

– مولانا السلطان، لقد انهار المسجد الجامع!

ورد السلطان في الحال غاضبا:

– إذن اشنقوا **الحاج جيلالى** الحلاق، فهو المسئول.

وتنفَّس الصعداء مستريحا، حين تذكر أنه قبل عشرين عاماً خلت، بدأ في بناء هذا المسجد بإشارة من حلاَّقه الذي كان يومها شابا!

طفیل مؤدباً

هذه قصة ما حدث لطفيل، وهى حقا ومؤكدة .

والحمد لله على أنها بنت التجربة، وليست وليدة القراءة .

لقد اشتهر **طفيل** بأنه أكول نهم، لا أحد يستطيع أن يساويه فى سرعة الأكل والقضم والهضم، وكفاءة أن يهضم الحديد، وأصبحت شراهته مثلا ذاع وشاع وملأ الأسماع، كان يتمتع بالكرم واللطف فى كل ما لا يتصل بالأكل أو الطعام أو يخص المعدة، أما إذا بلغت اللعبة شيئا يُبلع، حينئذ يختلف الأمر تماما، إذ تتفتح أبواب شهيته على مصراعيها، دون أن تترك للآخرين شيئا، ولا حتى لزوجته الشرعية الطيبة، **السيدة زهرة**، وقد تزوجها على سنة الله ورسوله .

كانت **زهرة** طيبة وتقية، وأبعد ما تكون عن الغضب أو التمرد، تتقبل جشع زوجها بطيبة قلب ورضا نفس، معزّية نفسها بأن الله عز وجلّ أعطاه هذا الحق، ومرددة قوله تعالى : « **واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع، واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا، إن الله كان علياً كبيرا** » .

وهذه الآية، وآيات أخرى فى معناها، والأحاديث، والحكايات التاريخية كلها تحكم بنشوز المرأة التى تزهو على زوجها أو تعصيه، والمرأة الناشز تؤدب بشدة، ويحرص **طفيل** دائما على أن يلمح إليها ويذكرها بين حين وآخر بما يحفظ من هذه الآيات والأحاديث والقصص لتبقى زوجته فى نطاق ما يجب، طاعة واستقامة وفهما له، ورضاً به، وحرصا عليه . وعندما تحين ساعة الغداء، وهى اللحظة التى تبلغ فيها

بهجة **طفيل** وسعادته القمة، تغمر زهرةَ السعادةُ أيضا، ويبلغ رضاها غايته، حين يشبع زوجها، ويترك لها بقايا مما قدمت له من طعام.

وذات صباح نهض طفيل من نومه جائعا، مفتوح الشهية، شديد الرغبة فى أن يلتهم طبقه المفضل من اللحم، ولكنه أدرك أنه لم يحضر لحماً منذ أمس، وفى الحال، دون تمهل، ارتدى عباءته، وأسرع إلى السوق، حيث أشترى قطعة من لحم خروف، تكفى شخصين، صحتهما جيدة، وشهيتهما مفتوحة، ولما كان يدرك أن شهيته أكثر من مفتوحة، وأنها غير عادية، وتتجاوز ما هو مألوف، فقد اعتمد على قناعة زهرة، والله أكرم على أية حال، وهو يتولى أمرها، وهى كعادتها، ترضى بالقليل، وتقنع بأى شىء.

وأعدت الزوجة الطيبة الوجبة لزوجها بأسرع ما تستطيع وأودعت فيها كل مهاراتها فى الطبخ، لتجىء كما يحب ويشتهى: أعدت اللحم وتبّلته بالفلفل والكمون وشتى أنواع البهارات، وحمله **طفيل** إلى الفرن سعيدا مبتهجاً.

وعندما عاد **طفيل** إلى الفرن ثانية ليأخذ صينية اللحم بعد استوائها، داعب الفرّان أولا، وكان أسود فى لون المدخنة، فهو يناديه: يا أبيض القلب، وألقابا أخرى محبّبة إلى الفران، وليست بأقل ودّا وتكريما. ونظر **طفيل** إلى الصينية وهم يقدمونها إليه، فوجدها ذات حجم محترم، وحُبلى -يا كرم الله!- بحلويات لذيذة، ويتصاعد منها بخار مغرٍ محبّب، أخذ يقرع بطنه بعنف، وبدأ معها قلبه يدق بقوة، كما لو كان هناك خوف يلاحقه، أو رعب يركب بدنه، وفى أعماقه راح يبرر لنفسه أخذ ما لغيره، لقد ساقها القدر إليه، وماذا يمكن أن يكرّم القدر أكولا نهما خيراً من هذا، الحمد لله على كل حال، مالك السموات والأرض، الذى جعل لكل شىء سببا.

وطفيل لا يعرف الحياء أو التردّد فيما يتصل بأمور الطعام والشراب، فانتهز فرصة هذا الخطأ، وولّى إلى داره مسرعاً، وقد انتفخت أوداجه، وهاجت أمعاؤه، وهو يحمل الصينية فوق رأسه مزهوا، يوزع بصقاته عبر الطريق فى كل خطوة، بصقة هنا وبصقة هناك، غير مهتم بأحد، ولا يقيم وزنا ولا اعتبارا لأى مارٍ فى الشارع، وفاضت بهجته وهو يفكر فيما ينتظره من متعة ولذة، فيعوّض منها ما حرمته الأيام من لذات وخير طوال العام، وكلما فكر فى السعادة التى تنتظره، حث الخطى وأسرع، حتى يصل إلى البيت، قبل أن يبرد لهيبها، أو يفتر نهمه.

كان **طفيل** يسرع الخطو عجلا، يزداد هرولة كلما ازداد فيما ينتظره تفكيرا، أشبه برحّالة عبر الصحراء، أضناه الهجير، وأمضه العطش، يتطلع إلى الغروب، ويتحسس الطريق إلى عين جارية، نافد الصبر، ومع ذلك لا تتوقف شفتاه عن شكر الله تعالى، الذى وهبه هذه الصينية على غير موعد، شكر تائب على ما فرَط منه، حين أساء به الظن يوما، فخال أن الشقاء قدره، وأن حياته سلسلة متواصلة من المتاعب والحرمان، ولكن الله سلَّم!، وها هو أخيرا يمسك بالسعادة فوق رأسه، ويودع الشقاء والحرمان. وداعاً يا بؤس، ولو ليوم، ومرحبا بالشبع ولو لساعات، وبعدها فليكن الطوفان!

وأخيرا وصل **طفيل** إلى البيت! ولم يضيّع وقتا، جلس على أول كنبة بعد الباب، تعود أن يتخذ منها سريرا يتمدد عليه وقت الراحة، ومقعدا يركن إليه لحظات التفكير والتأمل، ومائدة يأكل عليها عند الضرورة، وبدأ فى الحال يلتهم ما فى الصينية، وأتى على جلها، سعيدا ممنونا، تمسك بيدك البهجة المتفجرة فى عينيه ووجهه، وعلى خديه، ثم نادى **زهرة**، وقدّم لها القليل الذى تبقّى:

– كُلى يا بُنيّتى!

فى نظرات حائرة خائفة، مترددة وجلة، تقول الكثير لمن يعى، أخذت **زهرة** تتأمل زوجها مذهولة:

– سيدى، هل أنت بخير!

– نعم بخير تماما، حمداً لله وشكرا، لم أكن فى مثل هذه السعادة والغبطة يوما كما أنا الآن.

– وهذا ما يقلقنى أكثر، هل أنتَ فى كامل قواكَ العقلية، وحرصِكَ على مصلحتك اللذين أعهدهما فيك؟

– وماذا ترينَ أنت؟

– يعلم الله أن هذه الغبطة تنضح بها كل حواسك، وهذه الرعاية غير المعهودة لى، وهذا التدليل الذى لم أتعوده منك، والإثارة التى تخصنى بها، حين تحرم نفسك من هذه البقية وتتركها لى، يقلقنى أكثر مما يسعدنى، فهى ظاهرة لا أعرف لها سابقة فى حياتك، وعهدى بك أن شعارك فى الطعام والشراب: نفسى أولا، ومن هنا خشيت عليك، فقد تشكو شيئا ألمس آثاره ولا أراه، وأريد أن أعاونك على دفعه، والشفاء منه.

– لا تقلقى، كونى مطمئنة كما كنت دائما، لم يحدث أن كانت صحتى، ومخّى أفضل مما هما عليه الآن، ولا أن شهيتى للطعام والشراب على أشدها كما هى الساعة.

فجأة شرد **طفيل**، فقد تذكر العين الحاسدة، وآثارها الشريرة، قد تصيبه فى شهيته ومعدته، فيخسر أجمل ما يملك فى الحياة، فأخذ يردد تعويذة قديمة يحفظها، تقيه شر ما خلق، ومن عين حاسد إذا حسد، بصوت بين الهمس والجهر.

– صوابعي الخمسة هذه في عين الشيطان اليمني، وصوابعي الخمسة الأخرى في عينه اليسرى، ثم أضاف :

– انظري يا زهرة، هذه ليست صنيتنا التي أعددتها، وإنما رزق آخر ساقه الله إلينا، فضلا منه ورحمة، علينا أن نحمده وأن نشكره عليه .

بقيت **زهرة** لحظات ترقب هذا التغيير المفاجيء الذي أصاب زوجها، سيدها الطّيب، وهمّت بأن تلعن هذا الفم النزق الشره اللعين، كل لذاته في الأكل، ولا يسعد إلا في الطعام والشراب، دون أن يهتم من أي مصدر أصابه، من حلال أو حرام، وقبل أن تتحرك شفتاها بما يحدثها به قلبها، كان صوت **طفيل** يهدر عاليا :

– **زهرة** . . ما لك واقفة صامتة هكذا، ارفعي الصينية، وكلي يا بنيّتي . . كلي ولا تترددي أو تبطئي، فهذا طعام طيب، جاءنا على غير موعد، رزقٌ ساقه اللهُ إلينا من غير تعب ولا جهد، وطاعة الله العلي القدير فيه، وشكرنا عليه، أن نأكله كله، أن نأتي عليه جميعه، ولاندع منه بقية، وسوف يكافئنا على ذلك في الآخرة، كما كافأنا بهذا الطعام في الدنيا .

ورفعت **زهرة** الصينية من أمامه، وهي تشكر في كلمات كسلى باهتة، فقد كانت تؤمنُ في قرارة نفسها أن ما بين يديها ليس رزقهما وإنما رزق غيرهما، فهو سرقة، والأكل منها حرام، ولكنها لا تملك لإرادة زوجها ردّا، فاحتفظت بالبقية بعيداً عنه، لتقدمها لأول سائل يقرع الباب .

والله يعفو عن كثير!

كتب أخرى للمؤلف

● **دراسات :**

١- **القصة القصيرة : دراسة ومختارات**، ط ٩ .

٢- **الشعر العربى المعاصر روائعه ومدخل لقراءته**، ط ٨ .

٣- **امرؤ القيس : حياته وشعره**، ط ٧ .

٤- **دراسة فى مصادر الأدب**، ط ١٠ .

٥- **ملحمة السيد**، دراسة مقارنة (مع ترجمة نص الملحمة) ط ٤ .

٦- **بابلو نيرودا : شاعر الحب والنضال**، ط ٢ .

٧- **دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة**، ط ٥ .

٨- **الأدب المقارن : أصوله وتطوره ومناهجه**، ط ٢ .

٩- **دراسات أندلسية فى الأدب والتاريخ والفلسفة**، ط٥ . [نفد] .

١٠- **ابن قزمان : فنان من الأندلس**، ط ١ .

١١- **مقدمة فى الأدب الإسلامى المقارن**، ط ١ .

● **التحقيق :**

١٣- **تحقيق طوق الحمامة لابن حزم**، ط ٧ .

١٤- **تحقيق الأخلاق والسير فى مداواة النفوس لابن حزم**، ط ٣ .

١٥- **تحفة الأنفس، وشعار سكان أهل الأندلس**، (رسالة فى الجهاد ونظم الحرب فى الإسلام) لابن هذيل، ط ١ .

١٦- **الوافى فى علم القوافى** (فن الشعر) لأبى البقاء الرندى، ط١ .

● **الترجمة :**

١٧- **مع شعراء الأندلس والمتنبى**، للمستشرق الأسبانى الكبير، إميليو غرسيه غومث، ط ٨ .

١٨- **الحضارة العربية فى إسبانيا**، تأليف المستشرق الفرنسى ليفى بروفنسال، ط ٤ .

١٩- **الشعر الأندلسى فى عصر الطوائف**، للمستشرق الفرنسى هنرى بيريس، ط ١ .

٢٠- **التربية الإسلامية فى الأندلس** للمستشرق الإسبانى خوليا ريبيرا، ط ٣ .

٢١- **الشعر العربى فى إسبانيا وصقلية** للمستشرق الألمانى فون شاك، الجزء الأول، ط ٢ .

٢٢- **الفن العربى فى إسبانيا وصقلية** تأليف فون شاك، ط ٣ .

٢٣- **مناهج النقد الأدبى**، تأليف إنريك أندرسون إمبرت، ط ٤ .

٢٤- **الرمزية**، تأليف أنّا بلكيان، ط ١ .

٢٥- **فى الأدب المقارن**، دراسات نظرية وتطبيقية، ط ٦ .

٢٦- **السلطان يستفتى شعبه**، وحكايات أخرى ط ١.

تطلب هذه الكتب من:

١- مكتبة الآداب.

٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة، ت: ٣٩٠٠٨٦٨ - ٣٩١٩٣٧٧

٢- دار الفكر العربى ومكتباتها.

٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة، ت: ٢٧٥٢٩٨٤
- فاكس: ٢٧٥٢٧٣٥

٣- دار المعارف ومكتباتها بالقاهرة والأقاليم.

● كتب تحت الطبع:

١- صلاح الدين الأيوبى فى الآداب الرومانية.

٢- الأندلس: أصداء من الماضى والحاضر.

الفهرست

رقم الإيداع	٢٠٠٠/١٥٤٥١
الترقيم الدولى	I.S.B.N. 977-241-327-2